شهريات

بقلم رئيس التحرير

١ ـ مع رودنسون ودوبريه

اتيح لي ان التقي الشهر الماضي ، في باريس ، بالمفكرين الفرنسيين العالميين مكسيم رودنسون وريجيس دوبريه طوال ساعتين ، بحضور صديقة الطرفين الكاتبة السورية حميدة نعنع .

وقد تجاذبنا في هذا اللقاء اطراف حديث متنوّع تناول مؤلفات المفكرين الفرنسيين الاخيرة ومشاريعهما القادمة .

ولم يدهشني في رودنسون اطلاعه الواسع وثقافته العميقة وملاحقته لشؤون الفكر العربي الحديث . فهذه كلها من ميزاته المعروفة منذ وقت طويل . ولكن الذي ادهشني انه ، برغم تقدمه في السن، ما يزال على دأبه في القراءة والمطالعة والانتاج ، مكرسا حياته للثقافة والعلم ، منفقا كل وقته وسط مجموعة كبيرة من الكتب والمجلدات التي أحالت بيته كله في شارع « فانو » بباريس الى مكتبة ضخمة ترودها ارواح الفلاسفة والمفكرين والادباء..

وقد اتفقت مع رودنسون على اصدار ثلاثة كتب له تضمّ مجموعات من دراساته الاخيرة في الفلسفة والشؤون العربية واليهودية ، تترجم الى العربية ، وتنشرها « دار الآداب » ، حتى قبل ان تصدر باللغة الفرنسية ..

اما ريجيس دوبريه ، فقد وجدته أفتى مما توحيه حياته من نضال وسجن ، ومما توحيه كتبه من معاناة وثقافة عميقة . ولكني لم أكن اتوقّع منه هذا القلق الذي يبدو في بعض حركاته العصبية وشروده بين الفينة والفينة .

وبعد ان حدّثته عن كتبه التي تُرجم إكثرها الى العربية ، ولاقت رواجا واعجابا لدى قرائنا ، طرحت عليه السؤال الذي راودني منذ عرفت اني سألقاه .

ـ أنت المهتم بقضايا نضال شعوب امريكا اللاتينية بحيث خصصتها بأهمّ كتاباتك ، لماذا لا تجد لديك اية اشارة الى نضال الشعب العربي والى قضيته الاولى : فلسطين ؟

أجاب ريجيس دوبريه ببساطة :

ـ انني لا استطيع ان اهتمّ بجميع قضايا العالم !

قلت له معلقا :

ـ اننا نحن العرب مهتمون جدا بكل نضالات الشعوب ، ولا سيما نضال شعوب اميركا اللاتينية لانه يماثل نضالنا ضد الاستعمار والامبريالية الاميركية وحليفتها اسرائيل ..

وصمتّ لحظة قبل ان اضيف :

ـ ولا بد من ان تعرف ان المثقفين عندنا تابعوا بقلق انباء اعتقالك وسجنك بعد ان قرأوا كتاباتك عن كاسترو وتشي غيفارا ، وكتبوا يحيونك على مواقفك ..

وأحسست من تردده بعض الحرج الذي حاول ان يتخلص منه بقوله :

ـ لا بد من ان اعترف بأن اهتماماتي بنضال شعوب الخارج ، كانت ، كما أحسّ الآن ، على حساب اهتماماتي بقضايا فرنسا بالذات . انني اريد الانصراف الآن الى معالجة الشؤون الفرنسية .

وكنت علمت من صديقته حميدة نعنع انه قد اصبح مستشارا لزعيم الحزب الاشتراكي الفرنسي فرانسوا ميتران . فتذكرت ذلك حين قلت :

ـ ولكن الا تعتقد يا عزيزي انك تخدم حتى الشؤون الفرنسية خدمة اكبر واسلم اذا اوليت الشؤون العربية اهتمامك ؟

فاقرّني ريجيس دوبريه على رأيي ، وصمت لحظة ينظر الى البعيد بعينيه الزرقاوين ، فاقترحت عليه ان يزور لبنان بدعوة من « دار الآداب » التي نشرت كتابين له (١) ، فقال انه يجب ان يزور لبنان لاعتقاده بانه

(١) « ثورة في الثورة » و « دفاعا عن الثورية » .

فؤاد كحل

ما روته الجثة في زمن القتل

لا تدفنـوه ،
ففـدا سينتصر الزمـان ،
وتلبس الازهار زرقتها والوان الدماء ..
دعوه مرميا على الهضبات ، يكفي ان نراه مبعثرا فينا
ويكفينا حداد الشعـب ،
ما دُفـن المخيم حينمـا قتلوه
ما دُفنت فلسطين الشهيدة حينمـا شربوا كؤوس
رحيلها وسقوطها

لا تدفنـوه ..
قلوبنا اتسعت لكل جريمة نكراء ،
واتشحت برعب بلادنا ،
لا تسألوا : كيف البلاد ستنتهي ؟!
الشعب صار حكاية الموت المفاجيء
صار منزرعا بأفئدة الاناس الثائرين ،
تفجروا رعبا من الدم المراق
تجمّعوا سيلا من العشق القديم
توحدوا وطنا يطوف على جميع خرائط الحلم البعيد
رأيت وجه مخيم اليرموك مصلوبا
على صدر الكرنتينـا
رأيت جميع اوردة الخلاص تصاب بالصمت الحزين
أقول : لا تتفرقوا في الموت ،
لا تتوحدوا في الخوف ،
لا تتدافعوا فـي الحزن
ها .. أجد الدماء تلوّن الزمن البخيل ،
وألثم الابعاد ، تأسر في حدود النار
أصرخ كي ارى الجثث المباحة ، فوق صدري
قصـة الغدر ،
انتصر يا كون واغرق أيها الباكي على اشلائنا
اشياءنا ...
كيف الخلاص من الهجوم ؟!
أينجب الوطن المهدم ثورة مفسولة الابعاد والرؤيا ،
وينجب ألف مليون من الاطفال يبتدئون قصتهم
مع الزمن الجديد ..؟!

يا أيهـا الزحف الحقود :
بيني وبين مخيم الفقراء عهد من عناد القصف.
لم تكن القلوب على القلوب!
نهايتي في الدّفن في امس واضحى ،
في البكاء ...
عرفت درب الثائريـن
رأيتهم يتساقطون وحولهم زرع الحصار سلاحه ،
وتفننت كل السلاسل في اقتحام صفيرة تبكي
وطفل تائه قتلوا اباه مشردا بين الخنادق
كيف أهرب من دمار حواجز الموت الكريهة ؟!
من سيول لم تكن الا انحسارا حينمـا طافت امام
الفاصب المحتل ؟!
ها .. انتصرت بلاد الحزن واتشحت برعب بلادنا ..

***

هيا اتركوه على الثرى وطنا يموت ، ليبـدأ الوطـن
الجميل
وينتهي الوطن القتيل
من كان يدرك سر هذا الحزن في قلبي ؟!
من صار يدرك سر هذا العشق في قلبي ؟!
يا رقصة الحلم البخيـل :
لبنيك تجتمع المدافع والجنود ، لقتلهم ..
للصارخين من العذاب من الظلام
توحدي يا ثورة الفقراء ، ها ...
جسدي ابتداء حامل ...
جسدي انتهاء قاتل ...
جسدي ارتحال ، حد فصل ،
رقصة غجريـة الايقاع ..
دمع أخضر الابعاد ..
ها .. وطني مكان للتآكل !...
فارقصي فرحا وحلما ،
او دمـا .. وتمايلي
انتصرت حدود الحلم عانق خطوي الساري دمي

واستيعدتني عن حدود النار اغنيتي :
سقط المخيم هللوا لي يا رفاق ..
من ها هنا كان المخيم ، هللوا ..
كانت ملايين الصواريخ ، القذائف والسلاح القاتل الوحشـي ،
والقوات كانت ها هنا حول المخيـم
هللوا .. يا أيها الاحباب
يا وطنا يُهرّب في دمي
سقط المخيم صار في الافاق حول قذيفة
لحنا ، نضالا ، صرخـة ..
عارا بوجه القادة الجبناء
صار حكاية الغدر الجماعي المصدّر من بلاد الموت
يا أحباب لم يسقط هنا الانسان
لم يسقط هنا الانسان

***

وُلِدَ المخيم من دم وملاجيء ومئات اطفال ،
من العطش الحزين ،
وُلِدَ المخيم من خنادق قاومت وتفجرت حقدا ورعبا
وانتهت رمزا لكل شعوب هذي الارض
حين يدوسها التتر المغوليـون
هيا لـم يعد وطني سوى منفى
وتسبقني الخُطى للنّفي
يا جسدا على الطرقات مرميـا
سترتحل الحواجز حينما يتفجر الانسان في دمنا وترتعش الجبال
تراكمت احزاننا كونا ، بلادا
اشرقت كل الشعارات الجميلة
اشهرت كل السكاكين ، المعاول ،
فوهات النار ، نبض الراكعين امام سوط القوة الرعناء
أبعاد الرؤى وتناقلتني ..
لا تدفنوه ، وأبعدوا كفنا رديئا ،
فالدماء زكيـة صارت ،
وفودا من قلوب طفلة ، تنمو على بردى
على بيروت
صارت حقنة للخوف ترعبهم ، وترعبهم وترعبهم ..
فيرتعدون يرتعدون يرتعدون ..
تزدهر البلاد وتزدهي حلما ،
وتلبس ثوبها العرسي ، تعطي للذي هجر الرصاص دمـاءه
من ها هنا شاهدت سرب مقاومين

وها هنا شاهدت سرب مقاتلين
اني تعريت ، البلاد ـ هنا ـ تهاجر في دمي
او مـن دمي
ولبست جلد بلادي الثكلـى
حلمت بموطني ... وحلمت ...
كيف يصير هـذا الوقت غدرا واغتيال
قتلوك خافوا ان تصير رؤى فتنحسر الجبال
قتلوك خافوا ان تظل مع العناد الاخضر الوطني جبارا ، كمال..
قتلوك لم تدرك مآثمهم بأنك صرت رمزا للقتال
ولبست فيك بدايتي ، ولبستني ..
ومشى بنا الزمن المحال
ها .. صرت لون النار والاعصار
صرت دمـا وشوارعا ومخيمات
صرت طفـلا في حصار
هل تذكر الحرب الدنيئة والدخول الغول والقوات والقتلـى
اتذكر دفقهم من كل صـوب،
حينما قتلوك حيا فارتحلت من الحدود الى الحدود
تلمّ جرحك صائحا فيهم :
قفوا عن نزفي العربي في الوطن الفلسطيني
لم يهن الصراخ ، فحاصروك ...
لا تدفنـوه
مساحة الجسد القتيل غدت تطوف على الخرائط
مرة قلنا له انتصر الحداد
فهاجرت احلامنا ، وغدا ـ بنا ـ الشـوق المدمّى دمعة ثكلى
فقـال : أنـا البلاد .
أنا زفرة المدن الحزينة
ان تروني تدركوا سر انبعاث الضوء
سر القادميـن من الخيام الى الخيام
من القديم الى الجديد
من الصحاري وهي ترمي ثوبها الرملي
من وطن اشادوا حزنهم فيه وساقوني غريب الدار للنفـي المخبأ ...
كان بُعدُ النفي أبعد من مشانقهم
وكانت فيهم احقاد ترسل حقدها ..
لا تدفنـوه ، يفرّ من اجسادنا
وتضيق كل مقابر الدنيا عليه
ويصير هذا الوطن الملعون وكرا للثعالب والذئاب
هنا انتحار العشق فلنبدأ حدود النار بالاعصار

قال : أنا السحاب ،
فعانقوا برقي وعاصفة الدماء
يا ايها الوطن المشرد ، يا التحام النحر بالحبل الدنيء
الام يرتحل الهـواء
الام ينحدر الرجـاء
الام ابكـي ، انثني ، اغتال رغمـا
لا تثور على الشفاه قصائد الصلب المضاء
قتلوه يقرأ أو يقاتل او يعاند خطة الموت المعبأ
باغتيال الشعب والوطن الحزين
في المـوت كان مخيمـا يبكي
وكان قضية تلقي على كل المنى اوزارهـا
فننوء عن حمل المنية ننتهي فوق السفوح
/ مخيما يتلو مخيم /
قتلوه ما عرفوا حدود القتل
ما عرفوا الاصابع كيف تصبح راية او اتهام
او كيف تصبح روحـه الثكلى
هجومـا واقتحام
ففـدا ستنتصر القلوب
دماؤنا فوق الشوارع
جرحنا عبر الموانـيء
دربنا بين القذائف
روحنـا حول الخيام !
من كان منكم عاشقا فلينفجر في كل وقت
كي تصير ثيابنا برقا
وكل سلاحنا ووجودنا ،دفقاير القادمين من العواصم
كي نجـرّد من حناجرنـا
سواعدنا ، فنستجدي على ابوابهم
من قال انك تنتهي يا موطني
يا موطن الذبح القـبيح
فهللوا لي أيها الفقراء
ما انحدر المخيم ، والازقة لم تزل غضبى
وكل جراح اطفال الضياع سيكبرون
ويحملون سلاحهم .
كان الحنين الوطني بلادنا

والآن ما زال الحنين الوطني بلادنا
قتلوه يصرخ فيهم : قلبي هو الاسلاك
هيا تعالوا جهـزوا قواتكم ،
جسدي عظيم فاقصفوه وحاصروه
غدا ستنفجر الديار ،
ما بيـن نبضي يولد الفقراء
ينتصر انبعاث النبت ، تزدهر الطيور على الشرايين النديـة
والفصـون علـى الفصـون ...
فكيف يقتحم السؤال ، وكيف يقتحم الجواب ؟!
سينتهي وطن يشردني ، اشرده
يبعثرني ، ابعثره .. فيرتحل السؤال مع الجواب!..
خلوه مرميـا يهاجمكـم
خلوه مجهولا يلاحقكم
خلوه ...
هذا موطن لم يعرف الدفن الجميل
وهذه الحارات للفقراء لم تعرف سوى الغدر اللعين
فالشعب لا يدفـن ..
والشعب لا يُسجن ..
والشعب حين تثور ريح الفقر والفقراء يقتحم القصور
قد تلبس الابعاد اكفانـا
وقد تتكشف الدكناء ،
لكن انفجار النجم والافراح آت
أيهـا البطل المسجى بالدماء ،
يا كتلة الفقراء في وطن العروبة
من حقول النفط حتى تيهنا البرّي
من جسد المخيم والقضية والاناس الجائعين
وقتلنـا ...
حتى القصور وسلطة العرب الشعوبيين :
سقط المخيم في بلاد العرب والفقراء ،
والوطن القتيل مشى مع البطل القتيل
لا تدفنـوه ...
فهم الذيـن بقتلهم لم يدركوه .

دمشق

كيف نرى لبنان الجديد ؟

عقدت « ندوة الدراسات الانمائية » في بيروت يوم ٢ نيسان الماضي حلقة ثانية حول لبنان الجديد (راجع ملف الحلقة الاولى في العدد الماضي) شارك فيها خمسة محاضرين هم : المحامي عصام نعمان ، والمحامي كريم بقرادوني ، والدكتور محمد علي مكي ، والدكتور ندي تيان ، والدكتور رياض الصمد .

وقد افتتح الحلقة الدكتور حسن صعب بالكلمة التالية :

ارحب بكم اجمل ترحيب باسم اخواني اعضاء ندوة الدراسات الانمائية بهذه الحلقة الثانية من الحلقات التي نعقدها كمواطنين لبنانيين وكمفكرين مسؤولين لاستطلاع المستقبل السياسي الافضل للبناننا العزيز . اننا لسنا هنا – اود ان اوضح ذلك كل التوضيح – في صدد حوار بين فريق وفريق ، بل نحن في هذه الندوة نعمل ونلتزم بلبنان كله كفريق واحد . نحن هنا نتحاور كمواطنين لبنانيين لدينا افكار واجتهادات وتصورات مختلفة او متنوعة ، وخاصة بعد هذه الفاجعة الاليمة التي اجتزناها جميعا والتي تتحدانا كل يوم . قد تكون المحنة في التاريخ نكبة ، ولكنها ايضا فرصة . فرصة لبناء جديد افضل من البناء الذي انهار ونحن على ثقة مطلقة بقدرة شعبنا اللبناني على تحقيق الانجاز المستقبلي الرائع للبنان الغد ، يكون افضل من لبنان اليوم ولبنان الامس . وبوحي هذه الروح وبوحي هذا الالتزام ارحب بكم جميعا واشكر اخواني الاعزاء المحاضرين المحاورين الذين تلطفوا ليشتركوا معنا في هذه المحاورة التي سيكون موضوعها اليوم كما تعلمون جميعا ، كيف نرى لبنان الجديد .

***

وقد جرت بعد الندوة مناقشة شارك فيها عدد من السياسيين والمفكرين ، فقال النائب الدكتور زكي مزبودي تعليقا على الحلقة : « انها خطوة مهمة على طريق تقريب وجهات النظر بين مختلف فئات اللبنانيين ، وقفزة واسعة نحو الحل السياسي المنشود الذي هو في حد ذاته منطلق اساسي لحل كل المعضلات وفتح ورشة لبناء لبنان الجديد » واضاف ان ما سمعه من الشيخ بشير الجميل في ندوة كسروان يخالف ما طرحه بقرادوني ، اذ ان الجميل طالب بالتعددية واللامركزية السياسية ، وتساءل : هل ثمة تناقض في الموقف الكتائبي ؟

وايد النائب العقيد فؤاد لحود مضمون محاضرتي الدكتور محمد علي مكي وكريم بقرادوني قائلا : نأمل ان يتمكن الدكتور مكي من اقناع ربعه بهذه المفاهيم ، كما نأمل من الاستاذ بقرادوني اقناع ربعه ايضا ..

***

ومشاركة في طرح الحلول المطلوبة للازمة اللبنانية، تنشر « الآداب » محاضرات هذه الحلقة ، مفسحة المجال لمناقشة افكارها ، مع العلم بان محاضرة الاستاذ بقرادوني ، بصورة خاصة ، توحي لنا بكثير من التساؤلات والتحفظات ...

« الآداب »

عصام نعمان

كيف نرى لبنان الديمقراطي الجديد

يقتضي ، قبل الحديث عن رؤيتنا للبنان الديمقراطي الجديد ، ان نلم ولو بصورة مختصرة بخصائص لبنان القديم .

خصائص الواقع اللبناني

تميز لبنان منذ ولادته السياسية في العصر الوسيط ولغاية انتهاء الحرب الاهلية في اواخر ١٩٧٦ بالخصائص الاتية :

اولا ـ لم ينطبع لبنان بالطابع العربي الاسلامي بنفس العمق والشمول كسائر الاقطار العربية . مرد ذلك الى جملة اسباب اهمها عزوف الحكم العربي عن جباله وتركيزه على سواحله لرد غارات البيزنطيين البحرية ، وتسامح الاسلام مع الاقليات المذهبية والثقافات السابقة له وللحضارة العربية الغالبة التي اعطت لبنان وسائر اقاليم الهلال الخصيب لغتها وتقاليدها وهويتها .

ثانيا ـ كان لبنان ، منذ زمن بعيد ، ملجأ تفزع اليه الجماعات والطوائف المضطهدة ، الامر الذي ادى الى نشوء تجمع لبناني متميز بتعددية فئوية (وليس حضارية) وبمحدودية التواصل والتفاعل بين اهاليه .

ثالثا ـ ان تميز لبنان على النحو السالف الذكر اوجد في كيانه ثغرات استغلها الاجنبي ـ الاستعمار الغربي بادىء الامر ثم اسرائيل ـ لزرع سموم التفرقة والانقسام . وبسبب هذا الوضع تحولت القوى الاجنبية الى عامل متداخل في حياة لبنان السياسية والى مصدر لمعظم متاعبه .

رابعا ـ كان للنشاط المبكر الذي مارسته ارساليات التبشير ومؤسسات التعليم الاجنبية اثر بارز في تعطيل نمو تعليمنا الوطني مما ادى ، بسبب اختلاف البرامج والتوجيهات ، الى تخريج اجيال لا تربط بين افرادها رابطة الثقافة والمناقب والالتزام الوطني الواحد .

خامسا ـ تفاعلت الاوضاع المار ذكرها على نحو اضحى النظام اللبناني معها آلة في خدمة بعض الجماعات داخل الطوائف والفئات المتنافرة الامر الذي ادى بدوره الى الخلط بين مفهوم الوطن ومفهوم النظام ، بحيث اضحى النظام القائم في عرف الجماعات المستفيدة منه ، ايا كان لونها المذهبي ، بديلا للوطن ان لم يكن هو « الوطن » اي القيمة او الفضيلة الجديرة بالحماية والتضحية والالتزام .

سادسا ـ ادى قيام اسرائيل وحروبها التوسعية الى تشريد شعب فلسطين ولجوء قسم منه الى لبنان . وبنشوء المقاومة الفلسطينية بين لاجئي المخيمات تحول الوجود الفلسطيني في لبنان الى وجود مسلح اثار حفيظة الجماعات المستفيدة من النظام اللبناني القائم ، والمتخوفة من حصول اختلال في ميزان القوى الداخلي ينعكس على اوضاعها الخاصة التي استقرت نسبيا منذ العمل ببروتوكول ١٨٦٤ .

سابعا ـ بسبب النظام القائم وفي ظله من جهة ، وبسبب اسرائيل ومضاعفات قيامها على شعب فلسطين والاقطار العربية المجاورة من جهة اخرى نشأت في لبنان ثنائية سياسية ذات طابع مذهبي ، اخذ طرفاها يتعاطيان مع العالم الخارجي كل على حدة ومن زاوية حماية مصلحته الفئوية وضمانها . وبكلمة ، تصدعت الوحدة الوطنية الهشة وانعدم الولاء الوطني الواحد في صفوف اللبنانيين .

ثامنا ـ بالنظر الى خطورة الانفجار اللبناني على الجسم العربي تدخلت الدول العربية ، في اطار مؤتمري الرياض والقاهرة ، لوضع حد لتفكك الجسم اللبناني

وانهياره ، ووفرت لرئيس الجمهورية القوة الرادعة والثقة الكاملة للنهوض بمسؤولية اعادة توحيد البلاد ارضا وشعبا ومؤسسات .

تاسعا – توقفت الحرب في كل الربوع اللبنانية ما عدا الجنوب حيث تدعم اسرائيل فريقا من اللبنانيين وتسعى ، عبره ، الى الغاء اتفاقية القاهرة وصولا الى نزع سلاح الفلسطينيين كشرط لوقف القتال .

عاشرا – تختلف قيادات لبنان السياسية حول مفهوم لبنان الجديد ومنهجية الخروج من المحنة . بعضها يرى ان صيغة ١٩٤٣ قد سقطت وانه يقتضي وضع صيغة جديدة على اساس ما يسمى بـ « التعددية الحضارية » . بعضها الاخر لا يعارض في تطوير صيغة ١٩٤٣ مع المحافظة على روحها . وثمة فريق ثالث يسلم بسقوط صيغة ١٩٤٣ الطائفية ويدعو الى تجاوز اسبابها ونتائجها بوضع وممارسة صيغة وطنية ديمقراطية علمانية تكفل اعادة توحيد لبنان المستقل وبنائه وانمائه في منظور عصري .

الصيغة الوطنية الديمقراطية العلمانية – المبادىء والمناهج

اذا كانت معضلة لبنان الاساسية هي انعدام الولاء الوطني الواحد ، وافتقار اهاليه الى مفاهيم واهداف مشتركة فان غاية الاصلاح المنشود يجب أن تنصب على معالجة التناقضات والامراض والعوامل التي افرزت هذه المعضلة وسهلت للقوى الخارجية استغلال الثغرات الداخلية وتوظيفها في خدمتها ، ولعل الاصلاح الجذري يتحقق من خلال المبادىء والمناهج الاتية :

اولا – تحقيق التناظم الوطني :

يتحقق التناظم الوطني بين الجماعات اللبنانية عن طريق :

أ – التوافق على تحديد هوية لبنان من حيث هو وطن عربي مستقل ، كامل السيادة ، يتطور نحو نظام ديمقراطي برلماني علماني يقوم على الحرية والمساواة والعدالة في اطار اسرة عربية تجمعه واعضاءها وحدة التاريخ والمصير، وفي مجال عالم أوسع يحرص اللبنانيون، مقيمين ومغتربين ، على ان يتابعوا فيه دورهم الحضاري في صنع المعرفة ونشرها وتعزيز قيم الحرية والعدالة والسلام بين الامم .

ب – كفالة حرية العقيدة بصورة عامة ، وفي طليعتها العقائد الدينية ، واعلانها بالصورة المناسبة والدعوة لها ومباشرة شعائرها بطريقة علنية او غير علنية شرط عدم الاخلال بالنظام العام .

جـ – علمنة مؤسسات الدولة وسائر المؤسسات ذات النفع العام وبنائها وفق الحاجات الموضوعية للبلاد والشعب ، وجعل الخدمة فيها مشروطة ومحصورة باهل الكفاية الخلقية والعقلية والتقنية .

د – مساواة المواطنين امام القانون وفي المراكز والفرص وفي المنزلة الاجتماعية دون تمييز بسبب الجنس او الاصل او اللغة او الدين او الرأي السياسي او الظروف الشخصية او الاجتماعية .

هـ – جعل السيادة الوطنية ملكا للشعب الذي يمارسها بواسطة ممثليه وعن طريق الاستفتاء العام .

و – الاعتراف بحقوق الانسان التي لا تمس ولا سيما حقه في الحرية وفي العمل ، وكفالتها له بوصفه فردا وباعتباره عضوا في التشكيلات الاجتماعية التي يمارس فيها شخصيته ، وتكريسها في دستور عصري يلزم الدولة بان تؤدي له الواجبات التي يفرضها التضامن السياسي والاقتصادي والاجتماعي .

ز – وضع برنامج وطني عصري للتعليم في شتى مراحله وفروعه تكون الجامعة اللبنانية قاعدته الصلبة وذلك من اجل بناء اجيال ذات ولاء وطني واحد وقيم خلقية واجتماعية متناظمة ، وتربية الكفايات العلمية والمهنية والتقنية اللازمة لتطوير البلاد وانمائها ، وتنظيم التعليم الخاص وضمان حريته بما لا يتعارض مع اهداف برنامج التعليم الوطني المار ذكرها .

حـ – الاعتراف بحقوق الاسرة كمجتمع طبيعي يقوم على الزواج المبني على المساواة الادبية والقانونية للزوجين وفق قانون مدني اختياري للاحوال الشخصية ، او وفق التشريعات المذهبية النافذة .

ط – جعل الدفاع عن الوطن واجبا مقدسا على المواطن عن طريق الخدمة العسكرية والاجتماعية الالزامية .

ي – وضع قانون للجنسية يكفل صون مبدأ التناظم الوطني وحماية القوة العاملة واجتذاب المواهب العقلية والتقنية وفق حاجات البلاد .

ثانيا – احلال الضمانات الوطنية محل الامتيازات الطائفية

الطوائف متحدات اجتماعية لا يمكن الغاؤها . الطائفية سلوك سياسي واجتماعي يمكن تهذيبه وتعديله وصولا الى الغائه . ولان الطائفية تنطوي ، بالضرورة ، على التمييز فانها متناقضة مع التناظم الوطني ومتعارضة بالتالي مع الولاء الوطني الواحد . واذا كنا نسعى الى تكوين الولاء الوطني الواحد فلا بد ، اذن ، من الغاء الطائفية .

غير ان الطائفية ليست سلوكاً فحسب . انها سلوك يرفده ويغذيه نظام للامتيازات والحصص المحفوظة . بل انها ، في عرف البعض ، ضمانة لعدم طغيان الاكثرية الاسلامية في لبنان وسائر انحاء محيطه العربي على الاقليات المسيحية فيه .

الواقع انه اذا كان لاضطرابات ١٩٥٨ ولحرب السنتين (١٩٧٥ – ١٩٧٦) من فائدة فهي انها اسقطت الامتيازات الطائفية كضمانات مصيرية . لا الاكثرية لجمتها مارونية الرئاسة الاولى ولا الاقلية حمتها مارونية قيادة الجيش .

ولعل الذين افاقوا من سكرة الحرب يرون الآن ، وسع احداقهم ، ان الضمانات الحقيقية تنبع من التوافق الوطني ليس آلا . فالتوافق الوطني هو مولد الاستقرار ، والاستقرار هو مناخ الازدهار ، والازدهار في الاوطان كالكرم في الرجال يطمس العيوب .

المطلوب اذن احلال الضمانات الوطنية محل الامتيازات الطائفية لضمانة الاقليات الخائفة ، لسبب او لآخر ، على مصيرها . المطلوب ان تحمي استقلال لبنان ضمانات نابعة من ذاته ، من وحدة شعبه وتوافق قياداته ومؤسساته ، واستقرار حياته السياسية والاجتماعية وتفاهمه وتعاونه مع الاسرة العربية ولعل ذلك يتحقق من خلال المبادىء والمناهج الاتية :

أ – الغاء الطائفية في جميع الميادين والمراكز والسلطات والمؤسسات العامة والخاصة .

ب – اقرار قانون ضد التمييز الطائفي والفئوي ينطوي على عقوبات مشددة ضد المخالفين .

ج – انشاء مجلس للشيوخ يكون ضمانة للاقليات الخائفة على مصيرها على أن ينتخب بمعدل ثلاثة نواب عن كل محافظة ، ويشارك مجلس النواب ، المنتخب على اساس وطني علماني، في بت القضايا المصيرية والاساسية وهي : تعديل الدستور ، اعلان الحرب ، اقرار المعاهدات والاتفاقات الدولية ، وضع قوانين الاحوال الشخصية وتعديلها ، حماية المعتقدات الدينية ، واقرار الميزانيات والحسابات العامة .

د – تعديل التنظيم الاداري بتقسيم لبنان الى اربع عشرة محافظة على ان يراعى في تحديدها عوامل التجانس الاجتماعي والتوافق السلوكي واستقرار التعامل الاداري مع مركز اداري معين ، وتماثل الظروف النفسية والاقتصادية الخ .

هـ – جعل المحافظات الاربع عشرة دوائر انتخابية لانتخاب اعضاء مجلس الشيوخ البالغ عددهم ٤٢ عضواً . ويكون لكل ناخب في هذه الدوائر الحق في انتخاب مرشح واحد فقط من المرشحين المتقدمين لملء المقاعد الثلاثة في كل محافظة او دائرة . ومن شأن هذا الترتيب ، اضافة الى عوامل التجانس والتوازن والاستقرار النفسي في تحديد المحافظات ، ان يترجم تعددية لبنان الفئوية بصورة متكافئة داخل مجلس الشيوخ دونما حاجة الى التصويت على اساس طائفي .

و – اشراك اعضاء مجلس الشيوخ في انتخاب رئيس الجمهورية بهدف جعل الرئاسة الاولى رمزا للوحدة الوطنية ومحورا للسلطة المركزية المتحررة من الضغوط الفئوية والاقليمية ، والحكم العادل عند اختلاف وجهات النظر ومرور البلاد في ظروف استثنائية .

ز – التصويت في استفتاء عام على كل مشروع قانون يتعلق بتنظيم السلطات العامة ، او باقرار تشريعات تتعلق بحريات التعبير والعقيدة والدين والاجتماع ، او خاص بالاذن بالتصديق على اتفاق او معاهدة يكون من شأنها التأثير على سير مؤسسات الدولة .

ح – الاقتراع على اقتراح تعديل الدستور ، سواء كان مقدما من رئيس الجمهورية بموافقة مجلس الوزراء او من اعضاء مجلسي النواب والشيوخ ، في استفتاء عام او في مجلسي النواب والشيوخ مجتمعين في جلسة واحدة . ولا تتم الموافقة على مشروع التعديل الا اذا ايده ثلاثة اخماس الاعضاء المشتركين في الاقتراع .

ثالثا – اصلاح السلطات العامة وتحقيق التوازن بينها

توازن السلطات مبدأ عظيم الاهمية في الحق الدستوري . اهميته في كونه ضمانة عدم طغيان سلطة على اخرى . ذلك ان لكل من السلطات العامة التشريعية والتنفيذية والقضائية اختصاصا متميزا تنهض كل منها بمسؤولياته باستقلال عن الاخرى . واذا ما استولت سلطة ما على اختصاص سلطة اخرى او اعتدت عليه اختل توازن الجسم السياسي برمته وسادت البلبلة وضاعت الرقابة والمسؤوليات .

على انه في لبنان يكتسب مبدأ توازن السلطات اهمية اضافية . انه ليس ضمانة عدم طغيان سلطة على اخرى فحسب بل عدم طغيان طائفة على اخرى .

ذلك ان المراكز والوظائف العامة هي ، في نهاية المطاف ، الرجال الذين يشغلونها . فاذا حدث وكان احد شاغليها متعصبا ومنحازا انعكس ذلك على الرأي العام وافسح في المجال للاعتقاد بان الطائفة التي ينتسب اليها ذلك المسؤول او الموظف المنحاز هي التي تمارس الانحياز وتستفيد منه .

من هنا اهمية توازن السلطات العامة . فهو لا يضمن صحة الجسم السياسي فحسب بل صحة المجتمع السياسي ايضا . انه ضمانة الدولة وضمانة الوحدة الوطنية في آن معا .

ولاصلاح السلطات العامة وتحقيق التوازن بينها نقترح المبادىء والمناهج الاتية :

أ – انتخاب رئيس الجمهورية من قبل مجلسي النواب والشيوخ .

ب ـ اختيار رئيس الوزراء من قبل اعضاء مجلسي النواب والشيوخ .

جـ ـ تعيين اعضاء الحكومة بمرسوم جمهوري بناء على اقتراح رئيس الوزراء .

د ـ اقالة اعضاء الحكومة بمرسوم جمهوري بناء على اقتراح رئيس الوزراء .

هـ ـ اعطاء رئيس الجمهورية حق اقالة الحكومة برمتها ، على ان يدعو ، في هذه الحالة ، الى اجراء انتخابات نيابية علمة . ذلك ان الحكومة تكون عادة حائزة ثقة مجلسي النواب والشيوخ ، واقالتها تعني نوعا من التجاوز على ارادة السلطة التشريعية . وعليه فان اضطرار رئيس الجمهورية الى اقالة الحكومة لاسباب طارئة وعظيمة الاهمية يجب ان يرافقه الاحتكام الى الشعب ليقول كلمته النهائية في التباين او النزاع او القضايا التي تسببت في اقالة الحكومة .

و ـ العودة الى التراث الدستوري اللبناني بجعل حق رئيس الجمهورية في حل مجلس النواب (ومجلس الشيوخ) محصورا بحالات ثلاث : تمرده عن الاجتماع رغم دعوته مرتين متواليتين ، رده الميزانية برمتها بقصد شل يد الحكومة ، حجبه الثقة عن الحكومة مرتين في مدى سنتين .

(كان السببان الاولان واردين في المادة ٥٥ من الدستور قبل تعديلها بالقانون الدستوري الصادر في ٨ ايار ١٩٢٩ ، وقد اضفنا السبب الثالث في ضوء التجربة الدستورية والسياسية للبلاد منذ صدور الدستور حتى الوقت الحاضر) .

ز ـ عدم الجمع بين الوزارة والنيابة .

ح ـ تحقيق الاستقلال التام للسلطة القضائية بجعل المجلس الاعلى للقضاء المرجع الوحيد لتعيين القضاة ونقلهم وترفيعهم وانهاء خدماتهم وحصر صلاحية وزير العدل بتوجيه النيابات العامة ، وتخويل المجلس الاعلى للقضاء صلاحية اقتراح القوانين والانظمة الآيلة الى رفع مستوى القضاء ، واعطائه حق الطعن بدستورية القوانين والانظمة امام المحكمة الدستورية العليا ، واختيار اعضائه بالاقتراع السري المباشر مرة كل سنتين .

ط ـ انشاء محكمة عليا للنظر في المنازعات المتعلقة بالمشروعية الدستورية للقوانين والمراسيم والانظمة والتدابير التي لها قوة القانون وفي الاتهامات الموجهة ضد رئيس الجمهورية والوزراء وفقا للدستور ، على ان يكون للمتضررين من اشخاص القانون العام والاشخاص الطبيعيين والمعنويين والمجلس الاعلى للقضاء حق الطعن والمداعاة امامها .

ي ـ حصر صلاحية المحاكم العسكرية بالجرائم التي يرتكبها عسكريون وتنظيم مشاركة العسكريين في هيئات القضاء العسكري واجهزته ، وحصر عمل المحاكم العرفية والميدانية في وقت الحرب فقط .

ك ـ اخضاع رجال الشرطة القضائية للسلطة القضائية مباشرة .

رابعا ـ اصلاح ديمقراطي للتمثيل الشعبي وتعزيز الحريات العامة

الديمقراطية الصحيحة تعني التناوب على السلطة . فلا ديمقراطية مع احتكار السلطة من قبل فرد او فئة او حزب . ومن مساوىء نظامنا اللبناني انه ، منذ الاستقلال على الاقل ، جعل التمثيل النيابي امتيازا لفئة محدودة من اللبنانيين يتوارثون النيابة ويحتكرون الحكم ويمنعون ، بالتالي ، نشوء قيادات جديدة تستطيع ان تتناوب السلطة فيما بينها . ولعل مرد ذلك إلى قانون الانتخاب الذي لا يشجع البتة على تطوير النظام الحزبي ويحابي رجال الاقطاع السياسي والمتمولين ومثيري العصبيات الطائفية. من هنا اهمية اعتماد قانون للانتخاب يقوم على الاسس التالية : الغاء الطائفية السياسية ـ جعل لبنان كله دائرة انتخابية واحدة واذا تعذر ذلك خمسة عشر دائرة كبرى ـ الاخذ بنظام التمثيل النسبي ـ نائب لكل عشرة الاف ناخب ـ تخفيض سن الانتخاب لثمانية عشر عاما ـ اعتماد البطاقة الانتخابية ـ تأمين مراكز الاقتراع في اماكن السكن ـ الاستخدام المتساوي والمجاني لاجهزة الاعلام الرسمية في الدعاية الانتخابية ـ اعتبار الرشوة جناية والتشدد في معاقبتها ـ تعديل النظام الداخلي لمجلس النواب لترسيخ مبدأ التكتل البرلماني ـ انشاء لجنة قضائية عليا للاشراف على الانتخابات وبت الطعون ـ الغاء الضمانة المالية ـ اخضاع النائب لرقابة ديوان المحاسبة .

وغني عن البيان ان لا سبيل الى جعل الانتخابات العامة اداة لتوليد قيادات جديدة وتنمية النظام الحزبي وعقلنة الحياة السياسية ما لم يتأمن مناخ للحريات العامة، وهذا يتطلب :

أ ـ وضع قانون ديمقراطي يطلق حرية تشكيل الاحزاب والنقابات والجمعيات والاندية من كل قيد سياسي .

ب ـ اقرار هيكلية ديمقراطية للعمل النقابي تضع حدا لواقع التشتت الراهن وترسي التنظيم النقابي على اساس قطاعي يعزز اتجاهه نحو الوحدة .

جـ ـ اعتبار شرعة حقوق الانسان بمثابة قانون لبناني وتعديل القوانين غير المتلائمة مع بنودها .

د ـ تعديل قانون الصحافة بغية ازالة القيود

اللاديمقراطية التي تحد من حريتها ، وايجاد الوسائل الكفيلة بتحريرها من الارتهان المالي والتجاري .

هـ ـ الغاء القيود المفروضة على حرية النشر .

و ـ تحديد حالات التوقيف الاحتياطي وحدوده ضمانا للحريات الشخصية .

خامسا ـ اعتماد اللامركزية الادارية وتعزيز التمثيل المحلي

تتحقق اللامركزية الاداريةمن خلال المباديء والمناهج الاتية :

أ ـ يكون لكل محافظة مجلس تمثيلي اقليمي يتولى اقرار وتنفيذ جميع المشروعات والتدابير ذات الطابع الاقليمي المشترك في نطاق المحافظة . وينتخب المجلس الاقليمي لمدة اربع سنوات ، وهو يتألف من ممثلين للهيئات والمنظمات والجمعيات والنقابات العمالية والتعاونية والبلدية والثقافية والمعنوية . ويكون له حق الرقابة على الادارات والمؤسسات العامة في نطاق المحافظة . كما تكون له صفة عامة وشخصية معنوية تتمتع بالاستقلال الاداري والمالي .

ب ـ يكون لكل مدينة وبلدة وقرية بلدية . والبلدية هي حكومة محلية ذات صفة عامة وشخصية معنوية تتمتع بالاستقلال الاداري والمالي وفقا لاحكام القانون ، ولا يجوز للسلطة المركزية ان تحل محلها الا في حالات استثنائية محددة يعينها القانون .

ج ـ لا وصاية مركزية على البلديات الا في حدود التصديق على الضرائب والرسوم الجديدة ، والاقتراض من من مؤسسات غير حكومية ، وتخطيط وتنفيذ المشاريع الانشائية الكبرى ذات الطابع الوطني او الاقليمي المشترك .

د ـ يمارس سلطة الوصاية على البلدية مفوض للحكومة يعين بقرار من وزير الحكم المحلي وتعتبر نافذة جميع القرارات التي يوافق عليها في حدود الوصاية المركزية على البلديات التي سبقت الاشارة اليها .

هـ ـ تخضع المجالس الاقليمية والبلديات للرقابة المؤخرة لديوان المحاسبة .

سادسا ـ مباشرة اصلاح اقتصادي ـ اجتماعي كامل يستهدف تحقيق الانماء الشامل والعدالة الاجتماعية في آن معا

يجب ان يكون للاصلاح الاقتصادي ـ والاجتماعي ، بعد الحرب الاهلية ، خمسة اهداف رئيسية :

أ ـ معالجة الفوضى الاقتصادية والازمةالاجتماعية بتوسيع دور الدولة الحديثة في تنظيم الاقتصاد وتأمين العدالة والخدمات الاجتماعية .

ب ـ تحقيق العدالة والتوازن في النمو بين مختلف قطاعات الاقتصاد ومناطق البلاد وفئات الشعب .

ج ـ جعل التخطيط والانماء اسلوبا للحكم ، والتثمير في قطاعي الانتاج الزراعي والصناعي اساسا لمضاعفة الدخل الوطني .

د ـ وضع سياسة تربوية جديدة تستهدف في آن معا : تحقيق التلاحم الوطني بين فئات الشعب ، وتوليد الملاكات (الكادرات) والمهارات اللازمة لمتطلبات ثورة التحديث والانماء في لبنان وسائر البلاد العربية .

هـ ـ مواجهة آثار المحنة التي استنزفت مواردالوطن البشرية ومرافقه الاقتصادية ومؤسساته الاجتماعية ببرنامج شامل للنهوض والتعمير .

***

هذه رؤيتي للبنان الديمقراطي الجديد . ولكن كيف السبيل الى تحقيقها ؟

لو لم يكن لبنان خارجا لتوه من حرب اهلية لكان الطريق الافضل لارساء قواعد الصيغة الوطنيةالديمقراطية العلمانية يكمن في انتخاب جمعية تأسيسية تنتظم جميع القوى الحية في البلاد وتتولى مباشرة الحوار للتوافق على اسس الاصلاح ومناهج التغيير ووسائل التنفيذ .

اما وان البلاد لم تسترد عافيتها بعد فلا بأس من ان يباشر الحوار من يرغب فيه جادا ويتحمل مسؤولياته امام انداده وامام الرأي العام بعيدا عن الاستجداء والمجاملة (1) .

والى ان تبرد الرؤوس الحامية يستطيع رئيس الجمهورية ، ان هو لمس في المتحاورين بطئا وفي ظروف البلاد ما يستوجب الاسراع في العمل ، ان يؤلف حكومة توازن وطني موسعة تضم ممثلين عن جميع قوى التغيير الوطنية الحية ، تأخذ على عاتقها ان تكون ، في هذه الظروف الانتقالية الصعبة ، برلمانا مصغرا لرسم خطط النهوض الوطني والاقتصادي والاجتماعي ووضعها موضع التنفيذ بمراسيم اشتراعية .

هل ثمة حل آخر ؟

عصام نعمان

---

(1) مع الاشارة الى انني وضعت مشروع دستور جديد يتضمن المباديء والمفاهيم والاصلاحات الواردة في هذه الورقة وفي سواها وذلك بقصد ان يكون بين ايدي المحاورين صياغة قانونية سياسية للاصلاحات المنشودة .

رياض الصمد

كيف نرى لبنان العلماني الجديد ؟

كيف نرى لبنان العلماني الجديد ؟

هذا القول قد يعني للوهلة الاولى ان نظامنا القائم هو نظام علماني ، الا اننا نريد تخطي العلمانية القائمة الى علمانية جديدة . كما انه قد يعني للبعض بأن نظامنا القائم هو غير علماني وما نريده هو نظام جديد علماني . ومع اننا مع التفسير الثاني الا اننا سنحاول معالجة المدلول الاول وذلك يعود لما نسمعه في آن الى اخر على السنة بعض السياسيين بأن النظام اللبناني هو نظام علماني مستندين في ذلك على نص الدستور اللبناني الذي لم يحدد دين الدولة او دين رئيس الدولة .

فهل صحيح ان نظامنا القائم هو نظام علماني ؟

قبل الاجابة على هذا السؤال لا بد من تعريف بسيط للعلمانية ، لنحكم من خلاله ما اذا كان النظام اللبناني هو علماني ام لا . فمع انالعلمنة لم يتفق على تعريف موحد لها وحتى ان تطبيقاتها لم تكن واحدة في جميع الدول . اذ ان حدها الادنى كان علمنة الدولة وحدها كما حصل مع نشوء الولاياتالمتحدةالامريكيةبل وغالبية الدولالليبرالية، وذلك بهدف الحؤول دون سيطرة اية كنيسة او طائفة معينة عليها . وحدها الاعلى هو علمنة المواطن ومنعه من الايمان الديني كما هو الحاصل في الدول ذات الانظمة الماركسية وذلك للحؤول دون سيطرة اية عقيدة دينية عليه . فمع هذه الخلافات في الفكر والتطبيق حول مفهوم العلمانية وحدودها ، سنعمد الى الاحتكام الىالعلمانية بأبسط صورها وهي فصل الدين عن الدولة . والذي يعني لنا حياد الدولة في سائر الامور المتعلقة بحياة المواطنين وذلك ضمانا لحرية الفرد واحقاقا للمساواة بين الجميع . ويدعو هذا المفهوم للعلمنة في جوهره الى تحييد الدولة ومؤسساتها بحيث تصبح في خدمة جميع المواطنين دونما تمييز او تفريق على اساس العرق او الدين .

انطلاقا من هذا التعريف للعلمانية بحدها الادنى ، نحاول الاجابة على التساؤل الاول : هل نظامنا القائم هو نظام علماني ؟

لنبدأ في الدستور ، لان العلمنة تبدأ منه ثم نمتد الى مبادىء وقوانين اخرى .

اولا : طائفية الرئاسات :

ان الدستور من حيث النص لم يأت على ذكر دين الدولة او دين رئيسها . وهذه حجة البعض في وصف نظامنا بالنظام العلماني . ولكن هؤلاء نسوا او تناسوا بأن القانون الاساسي للدولة ، اية دولة ، هو ليسالنص فقط ، وانما العرف الدستوري ايضا . وحتى ان هنالك في بعض الدول يشكل العرف الدستوري المصدر الاول للنظام الاساسي للدولة . فما سكت النص عن ذكره اتى العرف الدستوري ليبوح به وليعلنه ممارسة وواقعا .

ثانيا : الطائفية في السلطة التنفيذية والادارة :

ان الدستور وان نص في مادته ١٢ على ان « لكل لبناني الحق في تولي الوظائف العامة ،لا ميزة لاحد على الاخر الا من حيث الاستحقاق والجدارة حسب الشروط التي ينص عليها القانون » . الا انه عطّل هذا الحق وميز بين المواطنينعلى اساس انتماءاتهم الطائفيةعندما نص في المادة (٩٥) على ما يلي : « بصورة مؤقتة والتماسا للعدل والوفاق تمثل الطوائف بصورة عادلة في الوظائف العامة وبتشكيل الوزارة دون ان يؤدي ذلك الى الاضرار بمصلحة الدولة » .

اذن ، المادة (٩٥) عطلت المادة (١٢) ودفعتباللبنانيين

الى الانتساب الى احدى الطوائف المعترف بها ، وحتى ان القوانين جميعها وعلى رأسها قانون الموظفين الصادر في ١٢ - ٦ - ١٩٥٩ في مادته ال (٩٦) قد استند على المادة (٩٥) دون ان يأخذ بعين الاعتبار المباديء التي نصت عليها المادة (١٢) .

ثالثا : الطائفية في السلطة التشريعية :

وحتى ان المادة السابعة من الدستور التي نصت على ان « كل اللبنانيين سواء لدى القانون وهم يتمتعون بالحقوق المدنية والسياسية ويتحملون الفرائض والواجبات العامة دون ما فرق بينهم » . اتى نظام الانتخابات ليعطل هذه المباديء في اعتماد التوزيع الطائفي للمقاعد النيابية ، وبالتالي حرمانه للمواطنين من حق الترشيح للانتخابات، اذا لم يكونوا من طائفة النائب او النواب المحددة للدوائر الانتخابية (المادة ٣ من قانون ١٩٦٠) . اضف الى ذلك ان المادة (١٦) التي نصت على ان « تتولى السلطة المشترعة هيئة واحدة هي مجلس النواب » . أتت القوانين الطائفية لتعطلها بشكل جزئي وذلك عندما خولت المجالس الطائفية بعض الصلاحيات التشريعية .

رابعا : الطائفية في السلطة القضائية :

المحاكم المذهبية في لبنان كثيرة ، فهي ليست بحاجة الى دليل فالاسم هو الدليل .

ان الدستور نصا وعرفا وتنظيما لم يكتف فقط بتوزيع الرئاسات والوزارات والوظائف العامة على الطوائف ، وانما سعى ايضا في مادته العاشرة الى ضمان استمرار هذا الوضع ، وذلك عن طريق تخويل الطوائف انشاء المدارس والمؤسسات التربوية الخاصة بها . وذلك في نص المادة العاشرة التالي : « .. ولا يمكن ان تمس حقوق الطوائف من جهة انشاء المدارس الخاصة .. » .

ان هذا النص بالاضافة الى النصوص الدستورية والقانونية الاخرى ، افقد الدولة القدرة على الغاء طائفية النظام في المستقبل . اذ هل بالامكان بناء القاعدة الوطنية الصلبة من دون الغاء القواعد الطائفية ؟ وهل يعقل تقوية الولاء الوطني من دون اضعاف او ازالة الولاءات الاخرى، وعلى رأسها الولاء الطائفي ؟ وهل يمكن ان نبني وطنا وشعبا من دون مدرسة وطنية وبرامج تعليمية وكتب مدرسية وطنية موحدة ، بل من دون تهيئة الاجواء لجلوس الطالب المسلم الى جانب اخيه الطالب المسيحي والطالب الفقير الى جانب زميله الغني ؟

أظن ان هذا يكفي لاصدار الحكم على النظام القائم بانه نظام طائفي غير علماني . ومطالبتنا بالغاء النظام الطائفي هو ليس بدافع حبنا للتغيير من اجل التغيير ، وانما نابع من رغبتنا في تقدم الوطن وازدهاره . كما ان مطالبتنا بالعلمانية غير الملحدة هو لا لكوننا نريد العلمنة للعلمنة بل لانها الطريق الى بناء الدولة الحديثة ، دولة العلم والتكنولوجيا ، دولة الحرية والمساواة .

ان مطالبتنا بالعلمانية هو لوضع حد للطائفية ، هذه السلعة الاكثر رواجا في حياة لبنان « الحر ، السيد ، المستقل » . فمن نظام القائمقاميتين الى نظام المتصرفية ، الى نظام الطوائف في عهد الاستقلال ، بقيت الطائفية هي السيف المسلط فوق رؤوس اللبنانيين كلما ارادوا الدفاع عن حقوقهم وحرياتهم .

نحن ضد النظام الطائفي لا لانه حال ويحول دون اي اصلاح وحسب ، بل لانه ايضا هو السبب في كل الازمات واساس كل الفتن الدموية التي تحدث بين الحين والحين .

ما الحل ؟ يقولون العلمانية . ونحن معهم نقول بالعلمانية المناسبة . الا انها ليست الحل كله وانما هي جزء من الحل . ولكن اية علمانية هي الحل او الجزء من الحل ؟

نتساءل عن اية علمانية نريد ، لانه كما سبق وقلنا ليس هنالك من مفهوم واحد او تحديد واحد للعلمانية ، وانما هنالك تحديدات قد تختلف باختلاف المفكرين من جهة ، وباختلاف الحضارات والانظمة من جهة ثانية .

ان العلمانية اذا كانت تعني الالحاد ، كما يفهمها البعض او كما يريد ان يجعلها البعض ، فنحن ضدها . لاننا نحن احرار بأن لا نكون ملحدين ، ونطالب بعلمانية تؤمن لنا هذه الحرية . اذن ، نريد علمانية حيادية ، علمانية لا تعني ازالة الاديان وانما التحرر من الطائفية او كل التعصب الطائفي ، دون ان يسيطر دين على اخر . اننا مع العلمانية الهادفة لخير الانسان والضامنة لحريته والملتقية مع جوهر الاديان .

نحن نقول بالعلمانية كحل لنظامنا السياسي ، لاننا مؤمنون ، لاننا نأبى ان يستغل الدين من اجل تحقيق مآرب وغايات شخصية هي ليست من الدين بشيء ، بل هي ضد الدين . اذ لا يمكن ولا يعقل ان يكون بين مسيحي ، يتقيد بتعاليم سيدنا المسيح في اقواله وافعاله ، وبين مسلم يتقيد بتعاليم الاسلام ، شعور طائفي كالذي نراه احيانا بين ابناء الديانتين في لبنان . فالمسيحية والاسلام ، برأينا ، وهذا رأي كل باحث حر ، لا يمكن ولا يصح بان يتهما بأنهما مسببان للثورات والفتن في لبنان . وهنالك فارق اساسي بين جوهر الدين ، وبين قدرة الرجعية والاستعمار على استغلال الدين لمصالح سياسية .

ان نسبة الثورات والفتن التي عرفها ويعرفها لبنان وردّها الى « الدين » فيها كل التجني على الواقع وعلى جوهر الدين . فلو ان الاديان كانت هي السبب في هذه

الثورات والفتن لما كانت وقعت الحروب بين ابناء الدين الواحد . فهل في اوروبا الا مسيحيين ؟ ولماذا اندلعت الحروب المسماة بالحروب الدينية في اوروبا ؟

اذن ، الحل الذي نتوخاه هو ليس التخلص من الاديان التي يجب ان تكون كما ارادها الله علاقة بين الانسان وبينه وحتى بين الانسان واخيه الانسان ، وذلك عبر قواعد يسير عليها المؤمن وتشكل في النهاية جوهر الدين . وانما الحل هو في التخلص من الدين كسلعة استغلها المستغلون وتاجر فيها المتاجرون في سبيل تحقيق المصالح والغايات التي هي ابعد ما تكون عن جوهر الدين . الحل اذن ، هو في التخلص من المتاجرين بالدين ومن الامتيازات التي تحصل عليها فئة من الناس باسم الدين. ومن هنا فان معركة العلمانية هي جزء من معركة الديمقراطية ، فلا ديمقراطية من دون علمانية وخاصة في هذا العصر وفي وطننا لبنان بالذات .

ايها السادة .

ان للعلمانية مفاهيمها واجراءاتها المتعددة في مختلف الدول والانظمة ، وما علينا نحن الا ان نأخذ منها ما يتلاءم مع حضارتنا ومستلزمات انصهارنا الوطني . بحيث تلغي الدين كسلعة وتبقيه ايمانا يساعدنا على صنع المعجزات ، لان الاسس المادية وان كانت ضرورية ولازمة لتقدم المجتمع وتنظيمه تبقى الحوافز الروحية والمعنوية هي القادرة على منح هذا التقدم انبل المثل العليا واشرف الغايات .

ان العلمانية في سياقها الاوروبي المؤمن لا تتناقض مع الدين المسيحي . فهي حالت دون سيطرة كنيسة او طائفة دينية على الدولة من جهة ووضعت حدا للصراع الديني « بروتستانت ـ كاثوليك » من جهة ثانية . فأوروبا المسيحية المؤمنة فصلت لنفسها علمانية لا تتناقض مع الدين المسيحي . وما نطالب به للبنان هو علمانية لا تتناقض مع الدين المسيحي فحسب ، وانما لا تتناقض مع الدين الاسلامي ايضا . لان مواطني الدول الاوروبية اذا كانوا في غالبيتهم من الديانة المسيحية ، فأن غالبية المواطنين في لبنان تنتمي الى الديانتين : الاسلامية والمسيحية .

من هنا فأن المطالبة بتطبيق العلمانية الاوروبية على النظام اللبناني هي دعوة صادرة اما عن جهل او للتعجيز او للاثنين معا . فهي صادرة عن جهل اولا بالقاعدة القانونية العامة ، قاعدة تغيير الاحكام بتغيير الاحوال والازمات . صادرة عن جهل ثانيا بالتشريعات الديمقراطية العالمية ، للحقوق الاساسية التي تناولها الاعلان العالمي لحقوق الانسان عام ١٩٤٨ ، والتي تضمن للانسان ، كل انسان ، حقه في المعتقد . وصادرة عن جهل ثالثا بتعاليم الاسلام ونصوص القرآن .

واما تعجيزية ، اذ ان من يطرح العلمنة المطبقة في اوروبا المسيحية ليطبقها على لبنان العربي المكوّن شعبه من المسلمين والمسيحيين ، لا تتناسب مع تعاليم الديانة الاسلامية ، وبالتالي فان المسلمين اذا ارادوا المحافظة على دينهم لا يمكنهم القبول بهذه العلمانية المطروحة . فيرفضونها ، ويكون في ذلك المبرر لرفض الفريق المسيحي اي اصلاح للنظام وبالتالي الابقاء على النظام الطائفي الاقطاعي .

وان من يدقق النظر في عملية الطرح للعلمانية الشاملة وفي عملية الرفض لها يلاحظ بان ذلك يأتي من قبل الفئة المستفيدة والمستغلة للنظام اللبناني . يطرح المحافظون من المسيحيين العلمانية الشاملة المطبقة في اوروبا فيرد المحافظون من المسلمين بالرفض . فيتقاسمون الادوار من اجل الابقاء على النظام الطائفي الفئوي الذي يعطيهم المصالح والامتيازات ويبقي بيدهم سلاح الطائفية لحماية هذه المصالح .

اذن ، كان عدم تطبيق العلمانية في لبنان يعود في الظاهر الى الخلاف حول حدود العلمنة التي يجب تطبيقها ، وفي الواقع الى رفض الفئة التي بيدها زمام الامر ، وهي من المسلمين والمسيحيين معا ، لمبدأ العلمنة والى رغبتها في الابقاء على النظام القائم الذي هو بالنسبة لها بقرة حلوبا . فلو كانوا فعلا راغبين في تقدم الوطن وبناء الدولة الحديثة لكانوا فصلوا ثوب العلمنة الملائم للبنان ولكانوا تمكنوا من الوصول الى تسوية عقلانية تحرر اللبنانيين من الطائفية دون ان يسيطر دين او طائفة على اخرى . ولهذا فأن معركة العلمانية في لبنان هي معركة وطنية اولا وقانونية ثانيا .

هي معركة وطنية لانها تعني جميع المواطنين وفي اقرارها مصلحة الوطن والمواطنين . ولهذا فان واجب كل مؤسسة وهيئة عاملة على الارض اللبنانية اعارة هذه القضية الاهمية القصوى ، تدرسها وتبدي حولها الاراء ساعية من خلال ذلك الى توعية المواطنين لتخلق منهم القوة الضاغطة بل التيار الجارف يأخذ في طريقه النظام الطائفي الفئوي ، فيقام على انقاضه بناء لبنان العلماني الجديد الساعي الى احترام حقوق المواطن وحرياته دون تمييز او تفريق بين بقية المواطنين ، وذلك عن طريق تحييد المؤسسات السياسية والادارية بعد ازالة كل الاعتبارات الفئوية من الدستور وقانون الانتخابات وقانون الجيش ، والاعراف والمواثيق المكتوبة وغير المكتوبة ، وذلك على مستوى السلطات الثلاث والادارة والجيش والتربية .

ونشير هنا الى ان العلمنة السياسية مقبولة من

الغالبية العظمى من المواطنين والخلاف هو على الوجه الاخر من العلمنة ،اي الوجه القانوني .

الوجه القانوني هو ما يتعلق اساسا بقوانين الاحوال الشخصية ، والخلاف هو على هذه الناحية من العلمانية. وبرأينا ان هنالك طريقين لبلوغ هذه الغاية دون ان تمس اي قيمة من قيم الاديان الموجودة في لبنان .

الاول : القانون المدني الاختياري .

الثاني : القانون الموحد لجميع اللبنانيين .

بالنسبة للقانون المدني الاختياري فانه يعني الابقاء على قوانين الاحوال الشخصية المعمول بها ، بالاضافة الى قانون مدني جديد ينظم الاحوال الشخصية لمن اختاره .

وحرية الاختيار هذه في الاحوال الشخصية هي من صلب حرية المعتقد ، خاصة اذا كان الدين ينظم الاحوال الشخصية لاتباعه . كما ان حرية الاختيار هذه تخفف من الحملة ضد القانون المدني من قبل الذين لا يرغبون في تطبيقه على احوالهم الشخصية . وهذا الطرح للقانون المدني الاختياري هو ليس بجديد ، اذ ان اول من اقترح القانون المدني هو المفوض السامي في القرار رقم ٦٠/ل.ر الصادر في ١٣ اذار ١٩٣٦ ، وذلك الى جانب القوانين الطائفية .

ونضيف هنا بأن قوانين الاحوال الشخصية الطائفية يمكن ان تختزل الى اثنين : قانون الاحوال الشخصية للمسلمين جميعا وقانون الاحوال الشخصية لغير المسلمين. طبعا بالاضافة الى القانون المدني الاختياري للذين يرغبون في ذلك .

الحل الثاني : قانون موحد لجميع اللبنانيين ،وذلك ممكن الحصول عليه دون مخالفة مبادىء الشريعة الاسلامية الصريحة .وهذا الطرح ايضا ليس بجديد . هنالك بعض الدول الاسلامية كتونس وتركيا توصلت الى صياغة القانون الموحد للاحوال الشخصية من جهة كما ان احكام« المجلة » احكام الشرع الاسلامي كانت هي المطبقة لوقت مضى،حتى عام ١٩٢٩ ، على جميع مواطني الامبراطورية العثمانية من جهة ثانية . (وبعد عام ١٩٢٠ على ابناء الدولة اللبنانية). المسيحيون اللبنانيون طبقوا قوانين الاحوال الشخصية الاسلامية دون ان يخرجهم ذلك عن دياناتهم ، لان ليس في الديانة المسيحية ما يحول دون ذلك . قد يظن البعض ان ذلك حصل لانهم كانوا في ظل دولة اسلامية ، وانهم ارغموا على ذلك ، الواقع هو غير ذلك ، لقد اختاروا الشرع الاسلامي بملء ارادتهم . وطبقوه على احوالهم الشخصية . وحتى ان بعض الدولُ الاوروبية اخذت هذه الاحكام وطبقتها على احوالها الشخصية ، وحتى ان القانون المدني نفسه اخذ الكثير عن الشرع الاسلامي. هذا الحل نقترحه الى جانب القانون المدني الاختياري ، وهو بحاجة الى درس من قبل لجنة تضم ممثلين عن جميع الفرقاء ومن جميع الاختصاصات ، تطلع بقانون موحد للاحوال الشخصية يراعي احكام الشريعة الاسلامية الصريحة من دون ان يتناقض مع الديانات الاخرى .

واذا ما تمكنا من ذلك تكون قد اخترنا فعلا العلمنة المؤمنة المناسبة لاوضاعنا وحضارتنا والقادرة على بناء الدولة الحديثة وتأمين ركني الديمقراطية : الحرية والمساواة . جاعلة من اللبنانيين جميعا شعبا واحدا . اذ عندما يشارك الجميع في مشروع لبنان الجديد يشعرون بانهم مواطنون للبنان الذي اوجدوه معا ، لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات فيقوى الولاء الوطني وتذوب الولاءات الاخرى وتكون البداية لبناء لبنان الوطن، لبنان الدولة الحديثة ، لبنان الديمقراطي العربي العلماني .

د. محمد علي مكي

حقائق ومفاهيم لبنانية

١ ـ حقائق

١ ـ ان لبنان مؤلف من طوائف ، استقرت فيه منذ مدد مختلفة يصل زمن بعضها الى اكثر من الف سنة .

٢ ـ ان تواجد هذه الطوائف في لبنان كان من اجل الامن وحفظ الذات وعدم الذوبان في بوتقة المنطقة .

٣ ـ تكوّن مع الزمن لدى الطوائف اللبنانية ، بسبب التأقلم الجغرافي ، انتماء لبناني طائفي ، اي وطنية طائفية

٤ ـ ان عناصر عديدة مكونة للطوائف ليست من اصول عربية كالاكراد واليونان والروم والارمن والفرس والصليبيين ولكنهم استعربوا حضاريا مع الزمن .

٥ ـ ان الطوائف اللبنانية ببعض عناصرها غير العربية الاصل ، وبمذهبها المخالف لاكثرية سكان المنطقة العربية ، تحولت الى قوى سياسية اجتماعية وثقافية متماسكة : مثل الدروز والموارنة والشيعة . اما السنة فقد تغلغل فيها العنصر التركي والكردي ولكن وحدة المذهب مع المنطقة العربية لم تحولهم الى طائفة متماسكة وملتجئة كما هو حال بقية الطوائف .

٦ ـ طوائف لبنان كانت دائما حذرة من الاندماج السياسي مع اكثرية المنطقة ، ولكنها كانت تتفاعل معها حضاريا على اوسع نطاق عندما لا يكون الاندماج السياسي هدفا في الافق .

٧ ـ لبنان الوطن مفهوم جديد على جميع الطوائف بدأ بالظهور تدريجيا منذ سنة ١٩٢٠ وعمليا بعد الاستقلال سنة ١٩٤٣ .

٨ ـ الولاء للبنان عند كل طائفة يخفي الولاء للطائفة اكثر بكثير من الولاء للوطن .

٩ ـ في القرن التاسع عشر ، وامام محاولة تطور بلدان الدولة العثمانية ، وضعت الطوائف اللبنانية نفسها تحت حمايات اجنبية : الموارنة في حماية فرنسا ، والكاثوليك في حماية النمسا والارثوذكس في حماية روسيا والدروز في حماية انكلترا والشيعة في حماية ايران . ولم يبق سوى السنة الذين ظلوا بشكل عام في الخط العثماني التقليدي . هذه الحمايات ذات دلالات هامة في فهم تاريخ نفسية الطوائف اللبنانية ، ومن هذه الدلالات رفض الاندماج السياسي في بوتقة المنطقة .

١٠ ـ ان دائرة الولاء في لبنان كانت في الماضي تضيق حتى تصبح ولاء طائفيا فقط ، ثم تتسع بمحاولة ابتلاع الطائفة لجميع الطوائف في لبنان . وفي الحالتين كانت الطائفة تقع في خطأ مميت . فاذا تقوقعت الطائفة تصبح حركة انفصالية تتحدى الجميع في المنطقة واذا اتسعت الطائفة وانفلشت تشكل تحديا لبقية الطوائف في لبنان . لذلك كان ولاء المواطن اللبناني يتراوح ما بين التقوقع والانفلاش ، فما تقوقعت طائفة الا وضربت ، وما انفلشت طائفة الا وضربت . والاعتدال هو الذي يناسب الولاء اللبناني : ولاء لا يتقلص الى حدود الطائفة ولا يزيد حتى يسيطر على الاخرين .

١١ ـ التعايش الاسلامي المسيحي حقيقة ظاهرة هامة جدا في نطاق الحضارة ، ولا يملك اللبنانيون بمفردهم ان يدمروا هذا التعايش لانه رائد للتعايش الاسلامي المسيحي في العالم كله . وهذا التعايش الحضاري هو اغلى واهم بكثير من التفكير بتحويل اللبنانيين الى امة قائمة بذاتها لتناقض ذلك مع منطق التاريخ ، ولما في ذلك من التحدي الخطير للمجتمع العربي .

١٢ ـ شعار العروبة شعار رفعه المسيحيون في وجه التيار الاسلامي العثماني . ولما امتص التيار الاسلامي شعار العروبة تخلى المسيحيون عنه ، لان رفع الشعار في البدء ، ثم التخلي عنه فيما بعد كان لهما معنى واحد هو نوع من الدفاع عن الشخصية المسيحية .

من هذه الحقائق التاريخية اللبنانية يتوجب علينا استخلاص الجواب على السؤال الملح الذي يطرح علينا من وقت الى آخر ، وهو اي لبنان نريد ؟ واية عروبة نريد ، واي ولاء وطني نريد ، واية هوية نريد ، ثم اي نظام نريد ؟

ان الارادة التي تفعل في الاوطان هي الارادة التاريخية ، وليست ارادة العاطفة او اية ارادة عفوية . لذلك نستنتج من الحقائق الاثنتي عشرة السابقة مبادىء الولاء القومي والوطني في لبنان التالية :

١ ـ ان لبنان جزء من العالم العربي ، ولكنه متميز بتوازن طوائفه ، وليس بتواجد طوائفه ، لان البلدان العربية جميعا تتواجد فيها الاقليات المختلفة ولكنها لا تتوازن .

٢ – انه بسبب توازن الطوائف اللبنانية اصبحت عروبة لبنان متميزة بانها تنبع من واقع لبنان ،وبالتالي فان عروبة التبعية لا ولاء لها في الوطن اللبناني .

٣ – الولاء للوطن اللبناني ، والولاء للعروبة النابعة من الاصالة اللبنانية هما ولاء واحد ومطلق .

٤ – يجب ان تكون تعددية الطوائف اللبنانية كما كانت دائما اغناء للوطن وللحضارة العربيـة والعالميـة ، وليس سببا للمنازعـات .

٢ – مفاهيم لبنانيــة

الانتماء – الولاء – الهويـة .

١ – الانتماء :

الانتماء هو الاصل الذي ينتمي اليـه الانسان ، سواء من الناحية الاثنية او القومية او الدينية . والانتماء بهذا المعنى ليس عاطفة ولا ارادة ، انما هـو قـدر لانـه يمت الى التاريـخ .

وبالنسبة الى اللبنانيين ، يجب الاعتراف بان لهم انتماءات مختلفة بسبب ترسبات الشعوب والدول عبـر الازمنة التي مرت على لبنان ، وبسبب الجماعات المتنوعة التي قدمت اليه عبر آلاف السنين احتمـاء بجباله من الاضطهاد ، او ارتزاقـا .

ان الشعب اللبناني يتألف اليوم من عناصر عديـدة الانتماء ، بغض النظـر عن المذهب او الدين : فهناك مـن ينتمي الى اصول عربية ويدين بالاسـلام او بالمسيحية . وهناك من ينتمي الى اصول ارمنية او كردية او فارسية او تركية او يونانية او صليبية ويديـن بالاسلام او بالمسيحية . والامثلة تغطي المجتمع اللبناني بكامله مـن شماله الى جنوبه . لذلك يصعب جدا تعميم الانتماء فـي لبنان او فرضه على الجماعات او على الوطن كله . لذلك يبقى ويجب ان يبقى الانتماء منحصرا في الاطار الفردي او العائلـي .

ان كثيرا من الناس ، في داخل لبنان وفي خارجه خلطوا ما بيـن الانتماء والدين ، فقالوا بعروبة ملونـة بالاسلام فأيدهـا البعض وانكرهـا بعض آخر ، واختلط الامر على الناس . وقد جرّ هذا الامر على اللبنانيين عجبا، اذ فرض على اعرق المسيحيين نسبا في العروبة ان يتنكروا لها بسبب الدين ، وفرض على ابعـد الناس من المسلمين نسبا الى العروبة ان يؤمنوا بها بسبب الدين كذلك .

هذا الخطأ الفادح يظهر اليوم علة العلل في لبنان ، لانه يسيء للديـن ويسيء للعروبة ويسيء للوطن .

ايها السادة : ان اعدادا ضخمة من المسيحييـن ينتمون الى اعرق القبائل العربية ، وبعضهم مـن قريش بالذات . كمـا ان اعدادا ضخمة من المسلمين ينتمون الى اصول تركيـة وكردية وصليبية . فالى متى التجاهل . ان الفتنة ترضع من الجهل . لقد خلطنا بين الانتماء والولاء . الانتماء هو حقيقة تاريخية يجب عدم انكارها ، ولكن يجب في الوقت ذاته عدم الزام الناس بالتنكر لانتماءاتهم . الانتماء قدر اما الولاء للوطن فهو ارادة .

٢ – الولاء :

هو الرباط العاطفي والمصلحي والمستقبلي الـذي يربط الانسان بالوطن او بالمنطقة حيث يعيش ويتفاعل مع غيره في بناء الوطن . هذا الولاء يجب ان يكون ملزمـا لجميع ابناء الوطن لانه اختيار وارادة . ومن لا يكون لديه ولاء لوطنه فهو خارج عن اطار الوطنية ، لانه يكون قد اختار بنفسه هذا الخروج ، فتسقط عنه حقوق المواطنية . وهنا يجب التمييز بين الولاء الوطني الذي هو واجب ، والولاء للسلطة الذي هو تحرك سياسي في اطار الوطن بالذات .

على هذا الاساس يجب ان يكون ولاء جميع اللبنانيين لوطنهم لبنان – كل لبنان – بغض النظر عن انتماءاتهـم الدينية او الاثنية او القومية او السياسية : لان ايـة محاولة لربط الولاء الوطني في لبنان بالانتماءات الدينية او القومية تؤدي فورا الى تمزيق وتحطيم مؤسساتـه ومجتمعاته المختلفة . ومن هنا يتوجب رفض الفيدراليـة والوحدوية والكانتونية والتعددية السياسيـة .

فليكن ان لا ولاء فوق الولاء للوطـن ، وان الانتماءات غنى له وليست مرضا فيه ، وان من هذا المعنى نستخلص الهويـة التي تجمع ولا تفرّق .

٣ – الهويـة :

هوية الوطن تستمد دائما من مختلف الانتماءات التي تربط الوطـن بجذوره التاريخية ، بالاضافة الى تأثيـر الموقـع الجغرافي ، وتفاعل البيئة ، ومن هذا النحو كان دخول لبنان في جامعة الدول العربية ومختلف مؤسساتها، وبالتالي اعتبار لبنان جزءا من العالم العربي مستقـلا سيـدا وحـرا .

هذه الهوية المميزة للبنان عن غيره من البلدان العربية تجعله متفاعـلا ومتعاطفـا مع البلدان العربيـة الشقيقة ، لا ذائبا ولا معرضا للذوبان ، اذ من ركائز تلك الهويـة الحفاظ على شخصيته واستقلاله وسيادتـه .

كما ان تلك الهوية المميزة تجعله كذلك متفاعـلا ومتعاطفا مع دول العالم في اطار الحفاظ على رباطـه العربي . ومن هنا يمكننا القول بوجود عروبة لبنانية خاصة مختلفة عما هو معروف وسائد في معظم الاقطار العربية . ان عروبتنا اللبنانية تتغذى حضاريا من التيارين الاسلامي والمسيحي ، وتنفتح على حضارات العالم . انها عروبة تقوم على الفصل بين الانتماء والولاء .

انها عروبة تسند كيان لبنان وسيادته ورسالتـه الحضارية ولا تهدده بالتذويب او الانجراف .

انها عروبة اصيلة نابعة من قناعة وليست وليـدة مساومة ، وعرضة للتغيير وفقا لتقلبات السياسة .

العروبة اللبنانية هي رسالة لبنان نحو العرب مـن جهة ، ونحو العالم من جهة ثانية ، وهي بذلك قيمـة . كما انها المختبر الحضاري في المنطقة بكاملها للصالح العالمي .

د. ندي تيان

لبنان العلماني

قبل ان اتطرق الى بحث موضوع لبنان العلماني ارى من الضروري ان اؤكد ما يلي :

١ ـ لا امثل في هذه الندوة الجبهة اللبنانية او المسيحيين في لبنان . ليس لي هذه الصفة ولا هذا الطموح .

٢ ـ اني مسيحي مؤمن

ان موضوع العلمنة في لبنان نوقش مطولا خلال هذه الاحداث الاليمة ومن قبل جميع الفرقاء في الصحف والاذاعة والتلفزيون الخ .. اتخذ كل فريق موقفا بالنسبة اليه يتعارض مع موقف الفريق الآخر . وكل هذه ابحوث قيمة ويقتضي اخذها بعين الاعتبار كون الاكثرية منها صادرة عن رجال علم ورجال دين محترمين . وليس بودي هنا ان اناقش كل هذه النظريات لان الوقت المحدد لي لا يسمح بذلك ، ولكن لا بد لي من ان الاحظ ان اكثرية الاراء انطلقت سواء في قبول او رفض العلمنة من معطيات دينية ، اي كل واحد حاول تبرير قبوله او رفضه العلمنة بالاعتماد على نص روحي أكان القرآن او الانجيل .

اذا اردنا مناقشة موضوع العلمنة لا يمكن ان نأخذ في الاعتبار ما اذا كان القرآن ام الانجيل يجيز لنا بقبولها او رفضها . لاننا نكون هكذا قد وضعنا انفسنا في اجواء دينية لا علاقة لها بالنظام الدنيوي . وقد اختلف رجال الدين والفقهاء في الشرع الاسلامي حول تفسير بعض الآيات الكريمة ، وحصل جدل كبير في وسائل الاعلام اذا كان القرآن يسمح ام لا بزواج المسلمة من غير مسلم . وسيطول النقاش بين المسلمين . ولا ارى شخصيا حلا علمانيا سينتج عنه . وحتى عند المسيحيين ، وعلى الرغم من قول السيد المسيح في الانجيل المقدس اعطوا لقيصر ما لقيصر ولله ما لله ، فانه لا يعني هنا الزواج ، والا لما تكلم عنه وفرض عدم جواز الطلاق واعتبرته الكنيسة سرا مقدسا . والفت الانتباه الى ان الكنيسة قد حاربت الزواج المدني مدة طويلة في فرنسا مثلا . واذكر ايضا بمعارضة الكرسي الرسولي لشرعية الطلاق في ايطاليا منذ سنتين لا اكثر . عندما فرضت العلمنة في دول اوروبا فأن محبذيها لم يفتشوا عنها في الانجيل وقد حاربتهم الكنيسة كما قلنا وحصلت اصطدامات بينهم وبين رجال الاكليروس الى درجة اخذت المطالبة بالعلمنة طابع الحرب ضد الدين نفسه . وهنا حصل الخلاف بين كلمتي Laicité و Laicisme اذ ان الاخيرة كانت تعني محاربة كل ظواهر التدين . اي انها اصبحت نقيض العلمنة الصحيحة التي لا تعادي الدين لان ليس لها علاقة معه . ولا يمكن الطلب الى رجال الدين ان يسمحوا ام لا بالعلمنة ، هذا شأن ليس شأنهم . كالذي يطلب من السلطة المدنية هل تسمح ام لا للكاهن بأن يحتفل بالقداس في ايام معينة دون سواها مثلا .

وفي هذا السياق يقول الدكتور فضل شلق في المحاضرة القيمة التي القاها في المؤتمر حول العلمنة والهوية العربية المنعقد في ٢٠ و٢١ شباط ١٩٧٦ في الالومناي كلوب والتي صدرت اعماله مؤخرا في كتاب عنوانه « لبنان الآخر » :

« العلمانية مفهوم يرى ان الدولة والمجتمع يجسدان علاقات انسانية اي بين البشر وليس علاقة دينية اي بين البشر وربهم . فالدولة والمجتمع العلمانيان هما حاصل علاقات انسانية واقعية وليس انعكاسا لارادة الهية » .

انطلاقا من ذلك نقول بأنه لا يجوز البحث عن العلمنة في الكتب المقدسة ، ورأينا كيف في الدين المسيحي نفسه يمكن ان يحصل خلاف في تفسير احكامه فيما يتعلق بالزواج مثلا . فكل محاولة في هذا الشأن مصيرها الفشل . كما ان على العلمانيين (اي غير رجال الدين) ان يفرضوا

العلمنة الكاملة الشاملة في كل المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

بعد تحديد هذا الالتباس الناشيء عن علاقة العلمنة بالكتب الدينية نتطرق الى اهمية دورها في لبنان الغد .

ان روحيه الميثاق الوطني اللبناني منافية تماما للمبادىء الاساسية التي تبنى عليها الدول الديمقراطية الليبرالية . كلنا يعلم ان هذه الدول تؤمن ما اعلنته شرعة حقوق الانسان والمواطن الفرنسية سنة ١٧٨٩ والاعلان العالمي لحقوق الانسان الصادر عن الامم المتحدة اي حرية الفكر مع سائر الحريات الاخرى ، كما اقرت دساتير كل هذه الدول مبدأ المساواة بين المواطنين . وجاء الدستور اللبناني في سنة ١٩٢٦ مكرسا هذه المباديء اي ان المادة ٧ من الدستور اعلنت ما يلي : كل اللبنانيين متساوون لدى القانون وهم يتمتعون بالسواء بالحقوق المدنية والسياسية ويتحملون الفرائض والواجبات العامة دون ما فرق بينهم . كما ان المادة ٩ ذكرت ان حرية الاعتقاد مطلقة . . »

هناك تناقض تام بين روحية الميثاق الوطني ومضمون الدستور . اين الديمقراطية عندما تكون الدولة مشكلة من طوائف وليس من افراد ؟ والدليل الساطع على ذلك ، انه لا يمكن للبناني ان يكون ملحدا . فعليه أن ينضم الى احدى الطوائف المعترف بها والا اعتبر كأنه لم يكن. ان دولة سنة ١٩٤٣ هي دولة ذات اتحاد طائفي اردنا ذلك أم لا . قالت الطائفة المارونية للطائفة السنية آنذاك انني اقبل الرجوع عن المطالبة بالحماية الفرنسية وتأسيس دولة مستقلة على شرط ان تتنازلي عن المطالبة بالانضمام الى سوريا . أي ان الحوار كان بين طوائف، وكان لا بد اذن للدولة التي نشأت من ذلك الحوار ان تكون دولة طائفية. وهنا تكمن الخدعة الكبيرة التي لا نزال نعاني من مآسيها، اذ كيف يمكن بناء دولة ديمقراطية ليبرالية حديثة على اسس طائفية ؟ اين الحرية الفكرية التي تشكل اهم حرية للانسان ؟ اين المساواة عندما تتوزع الوظائف ليس بالنسبة للكفاءة ولكن بالنسبة للطائفة . فلا يجوز ان يستغل رجال الدين سلطة الاكراه التي تتمتع بها الدولة لفرض معتقداتهم على افراد الشعب .

واذا كانت الصيغة الجديدة التي لا نزال نبحث عنها للبنان الجديد مبنية على نفس اسس ميثاق ١٩٤٣ اقول منذ الآن « العوض بسلامتنا » اذ سيأتي يوم آخر تطالب احدى الطوائف بحقوق لم تحصل عليها بعد . . فمن هو المجرم الذي سيأخذ على مسؤوليته حربا طائفية اخرى بعد فترة من الزمن وبعد كل ما شاهدناه من خسائر بشرية ومادية ؟ لا يمكن ان نلعب مرة جديدة بالنار كما يقولون . التنازلات الحالية ليس من شأنها الا ارجاء موعد الحرب الجديدة.

وحدها العلمنة الشاملة باستطاعتها بناء دولة عصرية ديمقراطية ليبرالية وحل المشاكل التي تعترضنا الآن . وهنا اقول بانه لا يجوز تجزئة العلمنة وتنفيذها على مراحل: ان مثل المادة ٩٥ من الدستور التي تكلمت عن توزيع موقت للوظائف والتي لا تزال حية ترزق بعد خمسين سنة من وضعها هو خير شاهد على ذلك . يطالب البعض مثلا بالاكتفاء حاليا بالغاء الطائفية السياسية وتأخير علمنة المجتمع الى ظروف اخرى. يؤسفني ان اقول بكل صراحة ان هذا المطلب هو مطلب طائفي وليس منطلقا من فكر علماني . ارى نفسي بغنى عن الخوض في التفاصيل والكل فهم ماذا اعني .

هذه العلمنة الشاملة ستؤمن الحرية الفكرية الصحيحة (كيف يستطيع الانسان الماروني طائفيا الملحد واقعيا ان يتزوج في لبنان عندما يطلب اليه الكاهن اعلان ايمانه قبل عقد الزواج ؟) الا يصبح الكاهن والحالة زور شاهد زور ؟ كما انها ستؤمن المساواة التامة بين المواطنين كأفراد وليس كأعضاء طائفة .

اما فيما يتعلق بحل المشاكل التي تعترضنا حاليا في العلمنة كما قلته ستحلها . وكلنا يعلم ان المشكلتين الاساسيتين هما : الشعور بالغبن عند المسلمين والشعور بالخوف عند المسيحيين . واعتبر ان الكل على حق في هذا الشعور .

عندما نعلن ان الدولة اللبنانية هي دولة علمانية يعني ذلك ان مبدأ المساواة قد كرس فعليا ولا تميز بين الماروني والسني والشيعي والارثوذكسي الخ . . نكون هكذا قد ازلنا عقدة الغبن التي يشكو منها المسلمون .

اما عقدة الخوف المسيطرة عند المسيحيين والنابعة عن كونهم يعيشون في منطقة اسلامية بكاملها فيمكن ازالتها في ظل دولة علمانية . ومن اجل ذلك على لبنان الجديد ان يعتمد على ما تضمنته الوثيقة الدستورية والمتعلق فقط بطريقة التصويت والانتخاب داخل مجلس النواب . لقد ذكرت الوثيقة الدستورية كما تعلمون ان بعض القوانين الاساسية يصوت عليها اكثرية اوسع من الاكثرية المطلقة المنصوص عنها في الدستور . انني ارى ان هذا المبدأ لا يتعارض مع مباديء الديمقراطية . خاصة ولان لبنان له وضع خاص من حيث تركيبته وبالتالي ارى انه اذا حصل تعديل للدستور وفرضت مثلا اكثرية ٣/٤ للتصويت على قانون الانتخاب والجنسية وتملك الاراضي من غير اللبنانيين مثلا وفرضت اكثرية ٢/٣ او اكثر لانتخاب رئيس الجمهورية فان عقدة الخوف عند المسيحيين ستزول وسيطمئنون على مصيرهم . ونكون هكذا تجنبنا تكريس طائفية الرئاسات وطائفية المناصب الوزارية وطائفية التمثيل النيابي وطائفية الوظيفة دون ان يؤدي ذلك الى تنمية عقدة الخوف عند المسيحيين .

وبالتالي عند فرض العلمنة (والعلمنة تفرض كما يعلمنا التاريخ ،تذكروا الثورة الفرنسية واتاتورك) لبناء لبنان الجديد ستكون قد ركزته على اسس صحيحة ومتينة .

اما فيما يتعلق بعلمنة المجتمع غير السياسي وهو امر لا مفر منه كما ذكرنا ومتلازم مع علمنة المؤسسات الدستورية فمن شأنه ان يكرس الحرية الفكرية والدينية بوجه كامل . وارى هنا انه يقتضي مثلا ليس فرض الزواج المدني ولكن جعله اختياريا . لان فرض نوع من الزواج هو مخالف للحرية . في ايطاليا مثلا تعترف الدولة بشرعية كل زواج اكان عقدا مدنيا ام دينيا . هذا من حيث عقد الزواج .ونرى هكذا ان العلمنة قد عززت الروح الدينية عوضاً عن الغائها لان من اختار الزواج الديني يكون قد اختاره عن اقتناع وايمان وليس مكرهاً . فليس عدد المؤمنين رسميا الذي هو الاهم على ما اعلم . فعلى الدولة العلمانية اذا ان تحترم الاديان كافة دون اي تحيز .

اما بالنسبة للمحاكم الروحية والشرعية فمن واجب الدولة ان تلغيها الغاء مطلقا لا رجوع عنه . وان زملائي المحامين الموجودين في هذه القاعة لا يمكن الا ان يجاروني الرأي . يقتضي حصر السلطة القضائية بين ايدي السلطة المدنية اي المحاكم العادية . وكما قلنا سابقا من غير الجائز ان تستفيد الطائفة من آلة الاكراه التي تتمتع بها الدولة . وقد فشلت كل المحاكم الدينية في تأدية مهمتها منذ تأسيسها لغاية الآن .

اما التشريع في الاحوال الشخصية ما عدا الزواج الذي تكلمنا عنه اي الارث والوصاية والتبني الخ ... فمن حق كل شخص ان يختار الخضوع الى احكام دينية أم لا كما هو الامر في الزواج . فان قانون الارث الحالي لغير المحمديين يمكن جعله اختياريا لكل لبناني .

اذن فالعلمنة تعزز الايمان الصحيح والصادق كما قلنا . فأن اكبر كارثة حصلت للكنيسة المسيحية هي عندما اعلن الامبراطور قسطنطنوس الاول ان دين الدولة هو الدين المسيحي . وعانى روح المسيحي من هذا الوضع اجيالا طويلة لان رجال الاكليروس نسوا دورهم الديني واصبحوا حكاما مدنيين . ونسيت الكنيسة مرات عديدة دورها الانجيلي لكي تنغمس في سياسات اثبت التاريخ فشلها . فجاء مجمع فاتيكان الثاني واظهر وجه الكنيسة الصحيح والمؤمن .

واخيرا وعلى الرغم من ان هذا الموضوع لا يدخل ضمن هذا البحث اقول ، ان العلمنة هي الشرط الاساسي لقبول المسيحيين بالعروبة . كيف تتصورون ان يعترف المسيحي بانتمائه العربي عندما تكون كلمة عربي تعني مسلم ؟ ومع الاسف ان الوضع الداخلي للدول العربية لا يشجع المسيحيين كثيرا من هذا القبيل . لذلك لا بد من اجل اقناع المسيحيين بعروبتهم (وليس فرضها عليهم) ان تتجرد فعلا كلمة عربي من كل انتماء طائفي وذلك لا يتم الا بالعلمنة الشاملة . والعلمنة مدخل صالح لقبول العروبة .

واختم كلمتي هذه بالقول بان الذي يقتضي تغيره قبل كل شيء هي العقلية قبل النصوص . حتى ان طبقنا العلمنة الشاملة وثابرنا على التفكير طائفيا وانطلاقا من مصالح طائفية وتأثيرا من رجال الدين سنظل نراوح مكاننا والحرب الجديدة آنذاك ستكون على ابوابنا ..وهذا ما لا ليس من مصلحة احد .

تدي تيان



كريم بقرادوني

لبنان العربي الجديد

اريد ان اقول فورا انني اتبنى كل ما ورد في تحليل الدكتور مكي حرفيا واعتبره جزءا لا يتجزأ من الكلام الذي سألقيه .

وفي الواقع موضوع عروبة لبنان لن اتناولها من زواياها كلها بل سأتناولها من زاوية واحدة . سأترك جانبا الزاوية الاجتماعية والزاوية الاقتصادية واتبنى الزاوية التاريخية التي سمعتها الآن . واني اكتفي بعرض زاوية واحدة ، زاوية مبدئية،فاتخذ موقفا . والموقف كنت اود ان اعرضه بتوسع ولكن سأكتفي من الموقف بعرض قواعد خمس اعتبرها الاساس في هذه المرحلة وبعد هذه الحرب .

القاعدة الاولى

لا يمكن للبنان الجديد الا ان يكون في محيطه العربي ومن محيطه العربي .

لبنان دون العرب كالسمكة دون ماء .

فالعروبة هي اوكسجين لبنان .

ولبنان لا يريد ولا يقدر ولن يكون اسرائيل ثانية .

القاعدة الثانية

لا يمكن للبنان الجديد الا ان يكون ذا هوية لبنانية تستمد عناصرها من تكوينه البشري والجغرافي والتاريخي

لبنان دون هوية خاصة كحبة السكر في البحر .

هوية لبنان الخاصة هي مبرر وجوده .

فلبنان يريد ويقدر ويكون دولة عربية ذات سيادة تامة وكاملة .

القاعدة الثالثة

لبنان الجديد يجب ان يدفن حربا عتيقة بين لبنانية لبنان وعروبة لبنان .

انها حرب كالمنشار تأكل لبنان على الطالع والعروبة على النازل .

فاللبنانية والعروبة ليسا كالزيت والماء لا يختلطان بل العكس اصح فبينهما تكامل وترابط .

ان افضل ضمانة لسيادة لبنان هم العرب . سيادة لبنان سياجها العروبة .

وافضل ضمانة لعروبة لبنان هو الولاء اللبناني .

عروبة لبنان بذورها الولاء للبنان .

عروبة لبنان تقضي اولا ان يكون لبنان .

وسيادة لبنان تقضي اساسا ان يتحصن لبنان بالعروبة .

فاكثر اللبنانيين عروبة يجب ان يكونوا اكثرهم دفاعا عن السيادة فيكون ولاؤهم مطلقا للبنان لان العروبة تعني الولاء للبنان . واكثر اللبنانيين لبنانية يجب ان يكونوا اكثرهم دفاعا عن العروبة فيكون انتماؤهم متزايدا للعروبة لان السيادة تعني الانتماء الى العروبة . هذا التكامل لا بل هذا الترابط بين الولاء للبنان والانتماء للعروبة يعني عمليا ما يلي :

اولا : ان لا يستحي المسلم بلبنان بل ان يفخر بلبنانيته فيصبح لبنان اكثر عروبة . وبالتالي يقدم المسلم اللبناني مصلحة لبنان على كل المصالح . فبين المصلحة اللبنانية وكل المصالح نتصرف كلنا وكأننا مسيحيون .

ثانيا : ان لا يستحي المسيحي بالعرب بل ان يفتخر بعروبته فيصبح لبنان اكثر سيادة . وبالتالي يقدم المسيحي اللبناني مصلحة العرب على باقي المصالح . فبين المصلحة العربية وباقي المصالح نتصرف كلنا وكأننا مسلمون .

اذن سيادة لبنان بيد المسلم اللبناني فهي مسؤوليته وهو ضامنها . فبقدر ما يزداد ولاؤه اللبناني بقدر ما تتدعم السيادة اللبنانية ، وبقدر ما يخف ولاؤه بقدر ما تضعف السيادة .

وعروبة لبنان بيد المسيحي اللبناني فهي مسؤوليته

وهو ضامنها . فبقدر ما يزداد انتماؤه العربي بقدر ما تتدعم عروبة لبنان ، وبقدر ما يخف انتماؤه بقدر ما تضعف العروبة .

القاعدة الرابعة

لبنان الجديد يعني تخطي صيغة التعايش المسيحي ـ الاسلامي لبناء وطن واحد ولا يعني تفجير التناقض المسيحي ـ الاسلامي لتقسيم الوطن الواحد .

فالرابطة العائلية لا تقيم وطنا والرابطة الطائفية لا تحافظ على وطن والرابطة العقائدية لا توحد وطنا ، وحدها الرابطة الوطنية تبني وطنا .

فلبنان المسيحي يعني التقسيم اي التفجير .

ولبنان الاسلامي يعني التقسيم اي التفجير .

وحده لبنان المسيحي ـ الاسلامي يعني الوحدة اللبنانية .

والوحدة اللبنانية تعني تجاوز التعايش الطائفي للوصول الى الولاء الوطني .

والولاء الوطني يعني السير نحو العلمنة ولو تدريجيا .

والواقع انه بقدر ما تتعلمن العروبة بقدر ما يصبح لبنان وطنيا .

فاللبنانية والعروبة تلتقيان على الضرورات التالية :

اولا : ضرورة بناء جيش لبناني جديد . فلا وطن دون دولة ، ولا دولة دون جيش . فالجيش يوحد فيقضي بالتالي على احلام التقسيم المعلنة او المبطنة ، ويحمي الحدود فيحل بالتالي مشكلة الجنوب . لذا فالتقسيميون هم ضد بناء جيش لبناني جديد والوطنيون هم معه . فالجيش يعني سياسيا المحافظة على السيادة .

ثانيا : ضرورة تنفيذ اتفاقية القاهرة وفق تفسير السلطه اللبنانية . فلا تبقى المقاومة قنبلة موقوتة تفجر التناقض المسيحي ـ الاسلامي . ولا يصبح لبنان فلسطين ثانية فيرتد عنها وبالتالي عن العروبة . فتنفيذ اتفاقية القاهرة يعني سياسيا تدعيم عروبة لبنان . وقد يكون التمديد لقوات الردع العربية ستة اشهر يعني عربيا تنفيذ اتفاقية القاهرة خلال ستة اشهر .

ثالثا : ضرورة ايجاد نظام لبناني جديد يقوم من جهة على لامركزية ادارية واسعة تزيل آثار الحرب وتنمي المناطق ومن جهة اخرى على مركزية سياسية واسعة توحد الشعب وتقوي السلطة فتصبح برأس واحد . وهذا النظام كفيل بتأمين سيادة لبنان وعروبته في آن معا .

القاعدة الخامسة

لقد اثبتت حرب لبنان انه بقدر ما يعترف العرب بهوية لبنان وخصائصه فيضمنون سيادته ويعاملونه كدولة عربية بقدر ما يعترف لبنان بعروبته فيقترب من العرب ويتصرف كدولة عربية فلا يلجأ الى الدولة الاجنبية . من هذا المنطلق تحركت سوريا في احداث لبنان . فسوريا لم تنقذ المسيحيين في لبنان بقدر ما انقذت العروبة في لبنان فحالت دون صهينة لبنان ومنعت تشريد الفلسطينيين فيه . لا بل اثبتت وللمرة الاولى بان الضمانة العربية افعل من اية ضمانة اجنبية لتأمين سيادة لبنان .

كما اثبتت الحرب اللبنانية بان الصراع اللبناني يؤدي الى صراع عربي ، والصراع العربي يفجر الصراع اللبناني . فالحرب اللبنانية كان احد اسبابها الرئيسية النزاعات العربية . والنزاعات العربية كان احد مواضيعها الرئيسية الحرب اللبنانية . فلبنان المتحد عامل اساسي في التضامن العربي ، ولبنان المنقسم عامل اساسي في الصراع العربي . والعكس صحيح . بقدر ما يتضامن العرب يتحد لبنان وبقدر ما ينقسم العرب ينقسم لبنان .

لقد حان الوقت لنستبدل مفهوم التقسيم المعلن او المبطن بمفهوم الوحدة اللبنانية .

كما حان الوقت لنستبدل مفهوم الوحدة بالاسلام او بالاكراه بمفهوم التضامن العربي .

فعروبة لبنان لا تعني بالضرورة الوحدة العربية بل يجب ان تعني التضامن العربي ولبنانية لبنان لا تعني بالضرورة الانعزال بل يجب ان تعني ايضا التضامن العربي . لقد تبين مرارا ، في حرب تشرين وفي مؤتمري الرياض والقاهرة ، بان التضامن العربي ممكن في كل وقت ومرغوب من الجميع في حين ان الوحدة العربية غير ممكنة في كل وقت وغير مرغوبة من الجميع . فعلينا ان لا نضيع التضامن العربي الممكن فنضيع في الوحدة غير الممكنة .

وافضل ترجمة للفهوم التضامني هو التنسيق القائم بين سوريا والاردن لتأمين المصالح المشتركة على اساس احترام شخصية ونظام كل دولة .

وافضل ترجمة للمفهوم التضامني هو التنسيق القائم صياغة « استراتيجية العلاقات اللبنانية » القائمة على التمييز بين ثلاثة انواع من العلاقات :

١ ـ « علاقات مميزة » مع سوريا . لان سوريا هي طريق لبنان الى العالم العربي .

٢ ـ « علاقات خاصة » مع العالم العربي . لان العالم العربي هو طريق لبنان الى العالم الخارجي .

٣ ـ « علاقات عامة » مع العالم الخارجي . لان العالم الخارجي الى العرب والى سوريا هو لبنان .

وهكذا يتبين :

ـ بان لبنانيتي ، وبصراحة اقول مسيحيتي ، لا تفرض الانعزال بل على العكس تعني التضامن العربي .

ـ وبان عروبتي ، وبصراحة اقول اسلامي ، لا يفرض الذوبان بل على العكس يعني السيادة اللبنانية .

فلا اريد ان اكون سمكة خارج البحر العربي فأختنق ولا اريد ان اكون حبة سكر في البحر العربي فأذوب .

ان هذا الذي لا يجيء عذابـي
ان هذا دمي خثرته المناديل ،
اية نار تلوح لي بالوداع لكي اوقد الان ناري ؟
ومن يقف الان بيني وبين انتحاري ؟
سماء الجنوب ، اذا كان ثمة من مطر قادم
فليكن فوق قلبي
ان شتلة تبغ تحاولني الآن ،لا تصلوا قبلها
وتواروا الى خضرة لم تطلها غصوني
ليأت الغزاة ويقتطفـوا حزن قلبـي
سيمحو الجنوب ملامح وجهي فلن يعرفوني
ان هذي المحيطات اضيق من كفن للشهيد
ولكن اصغر سنبلة في الجنوب تكفن ستين الفا من الشهداء

ادخلوا تحت احلامكـم
اثقبوا حدقات العيـون
وانظـروا
منذ عامين ينتظر الموت شيئا ولم يصل الميتون
انهم يشهدون احتمالات كفي في الارض
والارض موت يـدور
لقد وصلـوا
جثة جثة يعبرون القرى نحو شمس القرى
فهل خفقـة تسبق القلب ؟
هل شجر ينحني حين تعبر تلك القبور ؟
لقد وصلوا
اول العاشقين حبيبي وآخرهم ،
والمسافة ما بيننا جثة
لو ترون الذي يركض الآن بيني وبين ذراعيه
لو تسمعون الصدى حين يقرع هذا التراب مواعيدنا
قاوموا ارضهم بالزلازل
قاوموا صيفهم بالسنابل
وناموا الى آخر الحلم
موتوا الى آخر المـوت
هذا النهار بطـيء ،
هل سيأتي حبيبي الى موعد الحب ،
لم اقترح صدره وردة
فلماذا تفتح ضد الرصاصة والحرب لم تأت ؟

فلماذا يرصعه الموت حتى ذراعيه ؟
هذا النهار بطـيء
ولم يصل القادمون من الليلة الفائتة
تعذبني هذه الارض حين تجيء
وحين تضيء
وحين تعري على جثتي شمسها الخافتة
لان الجنوب دمي المتأخر سوف اموت
لان الجنوب غدي المتفجر سوف احاول موتي الاخير
ان هذا الجنوب مؤامرة القلب ،
لم نلتق مرة تحت سقف الخيانة
الا وكنا على خنجر واحد ،
ان فصل المساكين يحبو على ساعدي
ان فصلين يقتسمان بنفسجة لم تجيء بعد ،
ـ اي الفصول احب اليك ؟
ـ الجنـوب
ـ واي النساء ؟
ـ الجنـوب
ـ واي المواعيد اي المواليد اي الجراح ؟
ـ الجنـوب
ـ اذن فاحترق في هواء الجنوب !

* * *

هو القمر الآن في برج موتي
وقد سقط الثلج بين القبور
واطعمت قلبي نفايات احلامي الميتة
انادي الذين يموتون قبلي
انـادي الصـور
وارسمها فوق راحة كفي وارمي دمي للنجوم البعيدة
فيرتد جسمي الى نحره عابقا بالغبار
واعرف اني اصبت الهدف
وان الانامل خلف المتاريس تضغط فوق احتمالات جسمي
وفوق القرى النائمـة
وان الجنـوب سيأتي مـع الطلقـة القادمـة
سيأتي مع الطلقة القادمة .

ديزي الامير

مسرحية اكسير الشباب

كانت الاضواء ترى من بعيد . الوان حمراء وخضراء وصفراء و ... و ... ثابتة ومتقطعة ، تعلن عنوان التمثيلية المزمع عرضها هذه الليلة .

وقفت امام باب المسرح سيارات فارهة ، وهرع منها السائقون يفتحون الابواب بانحناءات متباينة الخضوع لراكبيها ، وسيارات صغيرة من كل الاصناف التي تنتجها مصانع العالم بالاحجام المختلفة ، وينزل من السيارة عشرة اشخاص او ينزل راكب واحد فقط .

اصوات اقدام تسمع في الشارع الليلي يأتي اصحابها لمشاهدة مسرحية الموسم .

وامام الباب يقف متسولون من شتى الجنسيات والهيئات يمدون ايديهم يطلبون العون بكل اللغات واللهجات .

واختلطت الاشكال ، نساء عاريات الاذرع يغطيهن الفراء ، والبعض الاخر مبرقعات من اعلى الرأس الى اخمص القدمين ، واخريات هبيات منفوشات الشعر لا تكاد تميز ان كن نساء ام رجالا ، بعد ان توحد زي الخنافس بين الجنسين .

ظهورهم على المسرح ، مع موجز لفكرة المسرحية واسم المؤلف والمخرج ومدير الاضاءة ومصمم الديكور ، ولم يذكر اسم الملقن .

كانت الضوضاء تملأ سماء القاعة وارضها قبل ان تبدأ الدقات التقليدية تعلن قرب افتتاح الستارة .

وتبادل الجمهور النظرات . . كانت الدقات طلقات رصاص من مسدسات وبنادق عرف بعض الحضور انواعها ، وتساءل الاخرون عن نوعية الاداة ، ولكن الكل استغرب هذا الابتكار في الدقات فاداروا رؤوسهم يسألون من حولهم عن السبب ، فاسكت كل جاره وهو نفسه يتساءل .

اضواء القاعة تنطفيء الواحدة بعد الاخرى والستارة تبتعد بشقيها عن المسرح .

على المسرح قاعة مختبر مملوءة بانابيب تتصل ببعضها ويفصل بينها في اماكن مخبار صغير او كبير . يتنقل بين الجميع سائل بالوان براقة جذابة سريعة التغيير . حين انتقاله من مخبار الى انبوب والبخار المتصاعد يتغير لونه ، كذلك يتغير مصدر صعوده او مكان هبوطه .

تقف على شرفــة تتسلق اليهــا غصون اشجار ، يبــدو عبد اسود يمتطي حصانا يرفع سيفا . يقفز من على ظهر الحصان الى الشجرة يتسلقها .

يقول احد المشاهدين : ــ هذا ولاشك عنترة بن شداد يريد لقاء عبلة .

فيجيبه جاره : ــ هذه جولييت تنتظر موعـــد حبيبهــا روميــو .

يقول ثالث : ــ ولكن هذا ليس في برنامج التمثيلية .

ويسكت الثلاثة حين يشاهدون عنترة يرفع سيفه ويبتر به يد جولييت صارخا :

ــ سرقت قلبي ، وهذا عقاب السرقة !

يمد الطبيب الشاب مدير المختبر اصبعا نحوالعجوز فتسقط ذراع جولييت والدمــاء تسيل منها .

يقول مشاهد : لماذا يحشرون هذه المشاهد ؟

فيرتسم نفس السؤال على وجوه كثيرة ولكنهــا لا تجيــب .

يظهر قبر على المسرح ، ويقترب رجل وهــو ينادي « .. ليلى .. ليلى » وينفتح القبر ، فتخرج فتاة مخنوقة بمنديل حريري تسحب بمنديلها الرجل وتدخله معهــا الــى القبــر .

يقول مشاهد : ــ هذا مجنون ليلى ! ما الذي جــاء

يصعد رجل الى المسرح يحمل الة تسجيل طالبا من المدير تسجيل صوت حركات عينيه فيرميه احد الحضور بسكيــن تخترق بطنــه .

تنتقل بين الحضور موزعة البرامج راكبة دبابــة تنطلق منها النيران . يهرب بعض الحضور الى البـــاب المغلق ويبقى البعض فزعا ، واخرون يسحبون انواعا من السلاح من جيوبهم يرمونهــا في الهواء فترتفع الرؤوس. تشاهد مصابيح القاعــة تضاء حين تصلها الطلقات .

مدير المختبر الشاب ترتجف ركبتاه والسوائــل الملونة تنسكب على المسرح وتسيل الى القاعة فتحرق مــا تصل اليه ويهب الحضور من على مقاعدهم قافزيــن فــي الهـــواء .

يدخل بائع يحمل سلاحا ينادي على صحف للبيــع فتبدو على المسرح باخرة مكتوب عليها : « محروقات » . يهجم عليهــا الحضور ولكنهــا تختفي فجأة كما بدت فجــأة .

يصرخ الطبيب مدير المختبر : ــ سأعقد مؤتمــرا صحفيــا اشرح فيه كل شيء سأشرح كل شيء .الذنب ذنب الملقن . غيَّر الحوار الذي تمرنا عليه شهورا ..

فيصرخ الملقن من قبوه : ــ الذنب ذنب مصمم الديكور الذي غيَّــر المشاهــد .

يقف مصمم الديكور زاعقا : ــ مهنـــدس الاضاءة

محمد علي شمس الدين

انثى الرماد

أنذا الان ، وحيدا ، كسرير في البرية ، اعول منذ مساء خاسر
... افتح نافذة في القلب، .. واودعها قمرالنسيان
انذا الآن ، وحيدا ، اخبط فوق الثلج بذاكرة عمياء
غامضة هذي الاسرار
وغامضة صرخات النسر المظلوم
غامضة خطوات الريح وغامضة كلماتي ..
انذا الآن ، وحيدا ، كضريح مهجور دون بكاء
من يجرحني في هذا القفر الشاسع ؟
من يرفع من دمعته قربانا لعطاش الطيروسائمةالمنفى
ويغني للقمـر الضائع :
« قمر النسيان متى سرقوك ؟
قتلوني قبل طلوع الفجر اخيفهل قتلوك ؟» .

***

يأتي من جهة البحر ومن جهة الصحراء
عصفور بجناحين سماويين واشرطة زرقاء
اعمى : هذا الطائر يحمل سارية دون رياح
اعمى : هذا السرداب الموصل للاشباح
اعمى : هذا البحار يشرشر فوق الرمل قواربه
ويهرّب فيها اوجاعا للمستقبل .

***

مأسورك يا شاحبة كالثلج وغامضة كالنسيان
مأسورك يا وردة عين الفقراء ووردة احزاني
من يجرحنـي ؟
منتظرا ، كسرير في البرية ، وقع خطاك علىالاعشاب منتظـرا
وتحدثني الزرقاء بانك لن تأتـي
وبأن امير الليـل تأخر عندك ذات مساء
فخلعت حذاءك وانكشفت قدماك على الصحراء
وبأنـك حين هممت
جننت انا البدوي اليك خليعا علىكتفيّ سنام ابـي
وحرارة ما خزنته الاشجار المدفونة في القيعـان
وما شربته من الشمس الكثبـان
اشقشق نحوك يا ناقة احزاني .
وحملت على كتفيساقي: انا كرة في الريحوانتسماء اللحـم الشفاف
امتدي واشتعلي انطفئي لا تنطفئي كوني حمراء دما
خبزا افيونسكارى اوعشاقا منتحرين بلا سببنامي:
ستعود الى انطير الاوكار
مـن يؤوينـي ؟
انذا الآن كثور السهل تهيجني الابعاد
مدي فخذيك على الخلبات فقد بدأت موسيقىالرقص تناديـنـي
مدي فخذيك على زمنـي
لن يخدعني جمل الثواروانتهربمن قدمي فرس الاحلام
مدي فخذيك من الاوراس الى قيعان دمي
لن يؤنسني وحش او جندي بنياشين حروبوهميه
مأسورك يا وردة عين الفقراء ووردة احزاني
من تحت لحاء الشجر الغافي
من حزمة ضوء شتويـه
من تحت الاغصان المشبوكة في الادغال
من تحت الصمت الداكن في قمر اسود
من تحت قرنفلة في مدرسة الازهار
اعلنت احبك فاعترفـي
لن ادفن قتلاي ولن اغمس في نهر عطشي
سأطوف شوارع لا اعرفها كقطار مسحور
واولول في الساحات : ق .. ت .. ي .. ل
انفث في الساحات : ق .. ت .. ي .. ل ..
ساراقص كل نساء الارض واهمس : مطعون في سنتـي الاولـى :
تلبس افكارا وغيوما سوداء ، تلبس احلامـي
وتراوغني ، تلبس مريولتها وتخون .
اعمى هذا العصفور ومحترق ابدا
آخذ حبل المطـر المغزول
ارسم في كفي مشنقتي ، واموت
من يجرحنـي ؟
في جلجلة الرعد الصافي
اتنكب صوتا بين الوديان واطلق انهارا في الانهار
اقول سقوطك مرتقب في جسدي
ونعاسك فوق تويجالوردةفوق الصدر وتحتالابطين

هنا مرتقب في جسدي
هل يتلامس فخذانا في الرمل ؟ اعترفي :
الملح لذيذ ودوار البحر لذيذ
ومحارة هذا البحر الدافيء دافئـة
والموج تأخر في صف العشق وتوجني .
خاسرة اسماك يديك بلا مائي
ها نحن مرايا في وسط الزرقة مدفونين الى الاذقان
ومتكئيـن على مـاء مهدوم
ها نحن نغوص على القبل السوداء
ها نحن نموت معا في ظلمتنا كصفاء محيط في وحدته
كمعلقة في البحر كأمواج عمياء .
يتراءى لي ان رياح الثورة تنفخ في كير بارد
ان غزالا في الليـل الدامي
يحمل لي حزنا في كأس بارد
ارفع قبعتي للحزن السيد ارفع قبعتي
واصوب نحو الشرق صراخا يسبقه نمر الادغال
اصوب نحو القلب فيسبقني تعبي
غضي جفنيك لآخذ شكل غريق
غضي جفنيك لاستلقـي
غضي جفنيك لارطم قاع البئر واستلقي
يتراءى في عدسات الثوار خيوط متشابكة حمراء
يتراءى سرب حمام ، او سرب دخان
يتراءى بدو مغتبطـون
يتراءى ارقام للوقت واخرى للنسيان
يتراءى هذا الابد الشاسع من لحم يديك يطوقني
غضي جفنيك لاستلقـي
كثر الموتى (من يدفن موتاه ؟) تضاعف سعر الحفارين ،
سأحفر اجمل قبرين بكفي لاجمل عصفورين انا احفر هذا
المجرى واسير به نحـو الهذيـان
غضي جفنيـك
تمر بيارقنـا المرخاة كلحم شائخ
نصغي لخرير دمـاء بشريه
نصغي لانين في قبو معتم
نصغي لبكاء في ردهات خلفيه
يا جوقة اطفال الوطن العربي احبك حتى اخرز نزاناتي
يا جوقة اطفال الوطن العربي ابتدئي
نتكاثر ام نتناثر في هذا الربع الخالي ؟
نقتل من ؟ تعبت كلماتي
سأعمق هذا المجرى المفضي للنسيان ، واوله :
يأتي من جهة البحر ومن جهة الصحراء
طفل بدم ابيض ، بقنابل ضوء فوسفورية
بحمام او بطباشير
ويدون في اللاشيء هواجسه : لا شيء .

آن الوقت لالفظ صاعقتي ، من يفهمني ؟
ثمة اصوات لا تدخل في الاذنين
ثمة اصوات ستظل معلقة بين الاسنان
ثمة اصوات تخرج من دائرة الاصوات
آن اوان الجمل الاخرى : جئنا ، احببتك . .
يصدف ان امشي فوق شوارع بيضاء بذاكرة بيضاء
وحدي. لا اتكلم لا احلم لا اضحك لا ابكي لا اتنفس
لا اغضب . . . لا . . . .
يصدف ان اسقط كالورقة .
اذكر : في عاصمتي ، فوق الاسفلت العاري
تحت الاعلان لفيلم عربي بالالوان :
قتلونـي
اذكر سالت من قدمي الاشعار
سالت كلحـاء الاشجار
نذكر كان الوقت مساء
وغمامة صيف تركض في ثوب ناري تحت سماء نارية
اشعلت لفافة تبغ من تعبي
وجلست ادخن في ركن معزول
واحبك مبتدئا واخيرا
احطب نارا اسكنها ، وطنا ، نارا اسكنها
واقول هنا بيتي فالشهداء احتلوا كل منازلنا :
اهلا برفاقي في الصف هلا
جئتم في وقت حنيني ، جئتم في موعدكم
لي وقت للحزن يوافينـي
جلسوا شربوا كأسين وماتوا :
في صحة نصف الوطن المقتول .
من مثلي يرفل بالشهداء ؟
مدي فخذيك على زمنـي
اشعر ان طيور شتاء غاصت في جهة ما
قبل صياح الديك توافيني :
اجنحة واباريق
اجنحة وخلايا سريـة
اجنحة ومناشير تحرض للعصيان
اجنحـة ونسـاء
اجنحة واحبك مبتدئا واخيرا . .
اشعر ان الشمس تخبيء لي خللا في وقت مجيء الليل
ان الالوان انقسمت في صفحتها ضدين
فالليلـة الف
والشمس تخبيء سيفا تحت عباءتها
نامي يا وردة عين الفقراء ووردة احزاني
غضي جفنيك لآخذ شكل غريق
ازف الوقت ليجلدنا سوط واحد
في جلجلة الرعد الصافي

سامي خشبة

ثورة ١٩١٩ :
قراءة في التاريخ والوطن مع المؤرخ العالم والمؤرخ الفنان

قليلة هي الكتب المصرية التي تدفع الآن الى الكتابة عنها ، والاقل منها هو ما يدفع مع الكتابة الى المناقشة، بل ان بعض الكتب التي تدفع قارئا مثلي كان يتمنى الاكتفاء بمتعة القراءة والاستفادة المحدودة و « النفعية » ،تدفعه الى تحمل « عذاب » المزيد من الكتابة ، سرعان ما تفقد جزءا من وقارها لكثرة ما تتعرض له من « تمجيد »رخيص يحرمها من احترامها ويحولها الى شيء منفر .

ولم تكن مصادفة فقط هي التي ساقتني الى كتابين يتناولان موضوعا واحدا ، هو من اكثر الموضوعات اهمية لاي مصري يريد ان يعرف وطنه وعصره وجذورهما القريبة معرفة حقيقية خالية من الاوهام ، ذلك هو موضوع : ثورة ١٩١٩ ، بأصولها ودوافعها ، وجماهيرها وابطالها ، وزعمائها ومنجزاتها ، وخونتها واخفاقاتها ، وتفاصيلها وتطوراتها ،الى ان اسلمت نهايات خطوطها لبدايات مرحلة اخرى جديدة من مراحل نضالنا الوطني والديمقراطي العظيم على طريق الحرية والعدل .

كان اول الكتابين هو : « تطور الحركة الوطنية في مصر من ١٩١٨ الى ١٩٣٦ للدكتور عبدالعظيم رمضان ، وكان في الاصل رسالته الجامعية لنيل شهادة الماجستير من جامعة القاهرة ،وباشراف واحد من افضل مؤرخي مصر المعاصرة ، الاستاذ محمد انيس، وقد صدر هذا الكتاب في عام ١٩٦٨ ولم تتح لي فرصة قراءته الا منذ شهور .

وكان الكتاب الثاني هو « دراسات في ثورة ١٩١٩» للاستاذ الدكتور حسين مؤنس ، الذي صدر في الشهر الماضي ، وكان قد نشر قبلا في صورة سلسلة من المقالات المطولة في مجلة « اخر ساعة » .

فالكتاب الاول عمل اكاديمي نموذجي ، أمضى مؤلفه نحو ست سنوات كاملة في اعداده (١٩٥٨ - ١٩٦٤) حسبما يقول في اهدائه ، وجمع له كل ما استطاع الوصول اليه من المراجع المعروفة وتلك التي اكتشفها بنفسه او كان اول من سلط عليها من الباحثين اضواء الدراسة والنقد ، وهو عمل تحدد له موضوع البحث ومجال الدراسة واهدافها ، واكتمل له - مع فسحة الوقت وضرورة المناقشة العلمية المنهج الموضوعي القائم على التحليل وربط الجزئيات ونقدها ومقارنة الروايات واستخلاص الحقائق على ضوء فهم متكامل للظروف الاجتماعية والسياسية ومعرفة دقيقة بقدر الامكان بالظواهر والتجمعات والتنظيمات والافراد المهمين . وهو كأي « دراسة علمية » يحاول ان يفصل فصلا كاملا بين شخص الباحث وبين موضوع بحثه ، ولكنه مثل اي موضوع للبحث في العلوم الانسانية ، لا بد ان يشعل في وجدان الباحث وفي عقله وفي ضميره مشاعل تشيع في جنبات طريقه الموضوعي المحايد ، النور والدفء ، ويجاهد، كما ينبغي للباحث العلمي - والانسان الوطني المخلص في آن واحد - ان يمنعها من الالتهاب الى درجة التحول الى براكين حارقة تفشى العيون من حيث اراد لها ان تهدي الابصار .

وقد دفعتني الى قراءته في المرة الاولى حاجة نفعية نموذجية ، هي الحاجة الى الحصول على تصور متكامل لحياتنا السياسية والاجتماعية في عصر الانفجار الاكبر لثورتنا الوطنية ، يكون عونا على فهم تطورنا «الثقافي» في نفس المرحلة من تاريخنا . وعندما انتهيت من القراءة شعرت بانني حصلت على ما كنت بحاجة اليه ، ولكنني شعرت ايضا بانني انتهيت من الكتاب ، اخذت منه ما كنت اريد ، ونقلت في اوراقي « المقتطفات » التي دلتني خطة عملي انني سأحتاجها ، واصبح الكتاب بالنسبة لي « هوامش » سأضعها في اماكنها ، وانسبها لصاحبها ،

شاكرا ـ في صفحات ـ ما انا بسبيل كتابته .

وفي وسط الكتابة « فاجأني » كتاب الدكتور حسين مؤنس ، يحمل العنوان المغري بالعودة الى القراءة ، ويزيد الاغراء بنصائح عدد من القراء الممتازين بضرورة معرفته. والدكتور حسين مؤنس صديق واستاذ قديم لجيلين على الاقل من القراء والمثقفين المصريين والعرب . وهو كاتب متعدد الاهتمامات ، ولكن مساهمته في التاريخ بعيدة من الناحية التخصصية ، عن تاريخ مصر الحديث . ولكنه من الجيل الذي نشأ بالفعل في احضان ثورة ١٩١٩، رغم انه لم يعرف بانتمائه لواحد من الاحزاب التي نشأت من خلالها او من خلال المرحلة التاريخية التي رسمتها الثورة . انه واحد من عشاق مصر الذين جمعوا بين النزوع الى العلمانية بمفهومها العقلي الحر ، وبين عاطفة المحبين ، وبين تعالي المتصوفة ، ثم انه دخل اكثر من مرة الى عالم الفن الذي يزيد اتساع عباءته عما ينبغي للفة صاحب العلم الموضوعية المحايدة ، وعما ينبغي لسلوك العشاق من التزام عشاقهم والتوحيد فيهم ، وعما ينبغي لعقول المتصوفة من تجرد عن كل ما هو محسوس او حسي ملموس .

ومع ذلك ، وربما بسبب كل ذلك ، كان لا بد ان اقرأ الكتاب . ومع سخونته وعاطفيته ولمعان العشق فيه للمعنى الذي جسده اسم مصر ، ومع حرصه على التبشير من جديد بمعنى « الوطن » الذي يخشى جيل ١٩١٩ ان تكون الاجيال التالية له قد فقدته او ضلت اليه الطريق، ومع اثارته للقضايا واستفزازه للمسلمات البديهية وايقاظه لها في كل صفحة من صفحات سجله التاريخي المليء بالدفاع الساخن عن جيل عظيم ، والتغني الحماسي بوطن يريد لابنائه التمسك بالايمان به ـ مع كل ذلك وجدت ان كتاب عبدالعظيم رمضان قد استيقظ من جديد ، وتحول معي وعندي الى « شاهد » وقضية ، لا بد من اعادة استجوابه والتفكير فيه ، فلا يصح ان يظل مجرد مجموعة من الهوامش في نهايات عدد من الصفحات ، كما ان كتاب حسين مؤنس لا يصح ان يظل مجرد اغنية ودعوة الى الحماس .

الحقيقة في كتاب الباحث الاكاديمي اكبر ، وابعادها اكثر وضوحا ، ولكن العاطفة الصادقة في كتاب العاشق المؤرخ الفنان اكثر سخونة . هناك ، في الكتاب الاول تحصل على التاريخ منبسطا في قطاع طولي ، وقد حوله التحليل العلمي الى شريط تتوالى اجزاؤه لكي تسلم لك معانيه دون حاجة الى اعادة تركيب ما تم تحليله . وهنا، في الكتاب الثاني ، يتحول هذا القطاع الطولي المنبسط الى « سر » يعيد المؤرخ اكتشافه معتمدا على شغفك انت بمعرفة الحقيقة الخافية المستورة داخل حناياه .. بل ان الاجزاء الاخيرة من دراسته الختامية « حول تصريح ٢٨ فبراير ميلاده ووفاته » تكتب بأسلوب وفي بناء مركب يجعل الحادثة التاريخية الحقيقية اشبه بالعمل الدرامي المعقد ، ويجعل الاشخاص المشاركين في الحدث اشبه بالشخصيات الدرامية في مسرحية او رواية من ابداع شاعر يعرف دخائل نفوس ابطاله ، ويعرف ايضا ولع القراء او « المتفرجين » بجو الغموض والاكتشاف الذي تخلقه الدسائس والمؤامرات والتصرفات المزدوجة المغزى، وتحول الابطال الى اوغاد وتحول المتهورين الى حكماء والخونة الى شجعان بواسل ، واصحاب العقول الساذجة الى دهاة ماكرين ، وتحول اصحاب العزائم الخائرة الى جبابرة ، ضربهم القدر بسهامه القاتلة .

الباحث الاكاديمي يضع كل شيء في المكان الذي احتله بالفعل في الزمن والمحيط السياسي والاجتماعي موضوع البحث . لا تشغله انت كقارىء ولا يفكر فيك الا بقدر ما يفكر في توصيل الحقائق والمعاني اليك بلغته المتجردة الموضوعية الهادئة . وشاغله الاكبر هو التدقيق المستمر في المعلومات المتوفرة لديه ، وفي البحث عن الناقص منها ، وفي التقليل الى اقصى ما يستطيع من الاستعانة بخياله مهما كان خياله خصبا وعلميا لكي يزيد بقدر الامكان من الاستناد الى « وقائع » محددة محققة متخلصة الى الحد الاقصى من الشك . انه يريد ان يصل بك الى اليقين الذي يساعدك ـ ان شئت انت ـ على استخدام « المعرفة » بالماضي للقيام بعمل يناسب اوضاع الحاضر التي ترتبت على ذلك الماضي الذي اصبح معروفا . ولن يكون هذا الماضي مجرد مجموعة « منتقاة » من الاحداث والوقائع يعيد روايتها بناء على افتراضات يضعها في مرتبة البديهيات ، وانما لا بد ان يكون « الماضي » عند المؤرخ الاكاديمي العلمي « كاملا » بقدر الامكان . وبعد استكماله ، بحيث يبدو اقرب ما يكون في ترتيبه وصورته العامة من « اصله » ، بعد ذلك وليس قبله ابدا ، يشرع « المعنى » العام في التجلي. وليس من وظيفة هذا الباحث ان يدعوك الى الاقتناع بالمعنى الذي وصل اليه هو ، وانما بالمعنى الذي تفترض صدقه صورة الماضي الكاملة القريبة من الحقيقة .

وليس معنى ذلك ان هذا الباحث الاكاديمي العلمي يشرع في دراسته لمرحلة معينة من التاريخ دون ان يكون مزودا بمفهوم نظري واضح عن القوانين التي تحكم تاريخ البشرية بوجه عام . انه يعرف هذه القوانين ولكنه يثق ايضا من ان هذه القوانين بالذات ـ قوانين تاريخ البشر ـ تخضع في نفاذها للاوضاع الخاصة التي تتميز بها كل امة من البشر ، بل كل جماعة من كل امة منهم . ولذلك فانه يطرح منذ البداية امامك تصوره للتاريخ ولقوانينه، الى جانب تحديده لجوانب البناء العلمي الذي يقدم فيه دراسته ، لكي يحصل على حريته العلمية في الكشف عن كيفية خضوع القوانين العامة لاوضاع وظروف الامة التي يدرس تاريخ مرحلة هامة من مراحل تطورها ، مثل مرحلة الانفجار الاكبر لثورة مصر الوطنية في ١٩١٩ .

وليس معنى كل هذا ـ ايضا ـ ان المؤرخ العاشق

« الحرب » ضد هجمات الجيش البريطاني ، وشئون الحكم والاقتصاد والقضاء بكفاءة نادرة وسط التصدي الناجح في بدايته لهجمات البريطانيين المضادة . كان معنى ذلك ان الثورة لم تكن ثورة على سطح المجتمع المصري وحده ، يجسدها « الافندية » وحدهم والا لماهزت السيطرة الاستعمارية ولما اسقطت بقايا القرون الوسطى في خلال ثلاثة اعوام بعدها مثلما حدث بالفعل ، وانها كانت ثورة شاملة للمجتمع المصري كله شملت جذوره الريفية نفسها حيث يكمن المنبع البعيد والثرى للحياة المصرية ، في غالبية البشر ، وغالبية الانتاج ، والاساس العميق للثقافة بمفهومها العريض .

***

والدكتور حسين مؤنس ايضا، بحساسيته التاريخية الفائقة ، يعدنا في الفصل الاول من كتابه بان يتحدث الينا عن « جيل ١٩١٩ » من المفكرين والسياسيين والفنانين والكتاب والاطباء والعلماء . ونستعد نحن باحتفال عظيم لدراسة هذا الموضوع البالغ الاهمية من خلال هذه الرؤية الخلاقة حقا والتي يمكن ان يؤدي تحقيقها الى خلق تصور عن كيان مصر الحقيقي ، عقلها وجسدها وروحها في مرحلة من اخصب مراحل تاريخها واكثرها خطورة ،وبالتالي الى فهم عميق الاصالة والوضوح لحركتنا الحضارية والسياسية منذ ذلك الحين الى الان .. ولكن المؤرخ العاشق الفنان يكتفي لسوء الحظ برصد الاسماء، واضافة جملة او جملتين الى كل اسم واحيانا الى كل مجموعة من الاسماء ، فيضيع علينا الكنز الذي وعدنا به، ثم يسترضينا ببحث اخشى ان اسميه بحثا انشائيا عن « الخصائص » التي ميزت جيل الثورة ، فيتحدث عن « حب مصر » وعن « الجدية » وعن « الايمان بالحرية والديمقراطية » وعن « الشعور بالعزة القومية والكرامة المصرية » .. وهذه كلها خصائص حميدة وجليلة ، ولكنها تبدو شديدة العمومية في السياق الذي وضعها فيه المؤلف ، لا تنفع الباحث الاجتماعي الذي ينتظرها بشغف عظيم لكي تساعده على تحديد « الشخصية القومية لمصر » وما الحقته الثورة الوطنية الكبرى بها من تطورات » .

وقد يجرنا هذا الى اشارة اخرى عن تقييم الدكتور حسين مؤنس للثورة العربية الكبرى « هكذا يسمونها » في عام ١٩١٦ التي قادها شريف مكة الامير حسين وابناؤه فيصل وعبدالله ، بارشاد من الجاسوس البريطاني الفذ الشهير لورنس ، والمقارنة التي عقدها الدكتور مؤنس بين هذه « الثورة » وبين الثورة المصرية الوطنية بعدها بسنوات ثلاث .

لقد وضع مؤرخ الاسلام المتخصص وعاشق مصر الفنان ، يدي على الخط الاساسي الذي يكشف عن زيف هذه « الثورة » باعتبارها تمردا قام به شيخ قبائلي طموح وجسور وغبي ، ضد دولة الخلافة الاسلامية المتداعية ، وشجعته عليه دول اوروبا الاستعمارية المخادعة لكي تسرع عن طريقه بهزيمة تركيا ، المتحالفة مع دول الوسط « المانيا والنمسا » في الحرب العالمية الاولى كهدف اول ، ثم لكي تسهل على نفسها بعد هزيمة تركيا، عملية اقتسام وتمزيق الوطن العربي كله ، واقامة اسرائيل وتدعيم سيطرتها على الشرق الاوسط كله استعدادا لمرحلة الاستنزاف الاستعماري التالية ،وللمواجهة المقبلة مع الخصوم الاستعماريين .

ولكن هذا الخط وحده ــ رغم اساسيته ــ لا يكفي لفهم طبيعة « ثورة » مشايخ القبائل المتخلفين الجهلة . فهؤلاء المشايخ بخيانتهم وتواطؤهم مع اوروبا الاستعمارية، تولوا ايضا هزيمة الثورة الوطنية العربية الحقيقية ،ثورة يوسف العظمة ورفاقه من شهداء معركة ميسلون الخالدة على مشارف دمشق حينما خرجوا يصدون عن الشام كله جيش الفرنسيين والانجليز الذي جاء لكي يقضي على الثورة الحقيقية التي لم تنخدع باوروبا ، وعلى الثورة الزائفة بعد ان كانت قد استنفدت اغراضها بالنسبة للسياسة الانجلو ــ فرنسية .

ان فيصل ابن الحسين ــ حينما احتل دمشق بجنوده البدو واعلن نفسه ملكا عليها كان يضرب الثورة الوطنية العربية الحقيقية ،منتظرا ان تسانده جيوش اوروبا المستعمرة،وخرج يوسف العظمة ليواجه الفرنسيين، وفي ظهره شوكة الملك المخدوع والخائن ، وهزم يوسف واستشهد ، ولكن الفرنسيين طردوا فيصل من دمشق لانهم كانوا يعتبرونه عميلا لحلفائهم ــ الانجليز ــ وليس تابعا لهم ، واخذه الانجليز لكي يضعوه على عرش اخر صنعوه في العراق ، لكي يقضوا عن طريقه ايضا على الثورة الوطنية العربية هناك ، مثلما تولى شقيقه عبدالله القضاء عليها ايضا في فلسطين والاردن .

وبهذا الخط يكتمل المغزى الحقيقي الذي ينبغي ان نتعلمه الان من التعامل مع هذا النوع من الثوار المزيفين الخونة : انهم يريدون احتواء الثورة الوطنية الحقيقية وضربها في الظهر ، غير متنبهين الى ان اسيادهم لن يبقوا عليهم الا الى حين استنفاد اغراض الاسياد منهم وبعد ذلك يمكن ان يستبدلوا نعلا بنعل لكي يكتمل لهم شق الطريق .

اشارة اخيرة قبل ان اختتم هذا الحديث الذي طال ويمكن ان يزيد فانني اعتقد ان قارىء البحث الاكاديمي المتكامل ،لا يمكن ان يستغني عن قراءة البحث «الحماسي» المثير .. فنحن في لحظة لا يصح ان نستغني فيها بالعلم الموضوعي الهادىء عن سخونة الحب وشاعرية العشاق ، ولا ان يستبدل هذا بذاك ففي اجتماعهما معا تستكمل الحقيقة وجهها ، وهي التي لا تنفصل عن الانسان الذي يعرفها .

حسن النجار

اسفار الملك الضليل - ١ -

السفـرة الاولى :

المرور على دارة جلجـل

- ١ -

ــ يترك الله فينا غرائزه ثم
يمضي الى النـوم ،
اسعى الى جسد امرأة ــ حانـة
يطلع الوجد فيها نبيذا
وريحا مرادفة للدماء
ــ هنا امرأتي أحرمت منذ عام
فابرمت فيها الصلاة بأسماء عائلتي ــ
انها ليلة يتفبر فيها النسيم على
شجـر القلب
ينسى المسافر أمتعـة الريح
ــ تنسى الخليلات اقراطهن على
علب الليـل ــ
عجلت بالرقصة الدائرية .
يا امرأة يتوحد فيها المسافر بالنجم
(لا نبصر النجم مقتربا ،
غير ان السماء التي ترث الافق
ذاهبة وحدها تشتري الماء)
عجلت بالرقصة الدائريـة .

- ٢ -

أهجر البيت ردحا من الليل
ــ ان نساء ابي يستبحن الدماء ــ
فأجلس بين عشيرتي ــ الخيـل
وجهي بلون استعارته الملكية
اطهو عشائي المفضل :
نصف رغيف
ونصف سباطة تمر
وقنينة من نبيذ المشاجرة ــ النار ،
نصف الجياد ركبت الى الماء
علمته الريح افراسهـا الركض
ردحا من الليـل ،
اجلس في بردتي مستطيلا
وفي جسدي امرأة ميتة .

- ٣ -

كان بيت ابي قبة الجامعة
كنت فيه المسافر وحدي
وكنت الدليـل ،
فمن يرث الملك بعدي ولي جسد
امرأة اشتهيـه ،
(يجيئون ابصرهم من ثقوب القصائد
يشرون لي وطنا باتساع القوارير ،
امس انتظرتهم في العراء
على ركبة الخيل ،
ــ ان ابي وحده في المزارع
يأكل تفاحة الملك او يشتهي
امرأة لا تمانـع ــ
ما ابصروا غير لحمي المورث ،
قالوا انتظرنا طويـلا ولكننا آه ،
أبصرهم يعبرون المدينة جوعا
يصومون عن خبزها
لا تشربوا الماء من جرة البيت
فالماء زرنخ فيه الدم الملكي
ولم تبق الا القصائد نحشو بها
دمنا ، فأبي شابق الارض في
جسد امرأة افقأتهـا خطى العهر :
ــ دافئة أنت مثل النساء
ــ وعاشقة أنت مثل النساء
ــ انا خبزك المشترى من بلاد العجم)
وأنا جالس في قميصي اخمر
او اشتهـي لفـة
او اقيس المسافة للريح

شاهدني القمر المتجول ارتكب الوجد
في خلوة الماء ،
ينفلق الحجر ــ الليل عن طينة الاوجه
المشتهاة .
اراودهم عن هواي
وامشي بهم زمنــا
كنت فيه المسافر وحدي
وكنــت الدليل ،
وكان قميص ابى ..
(امس حدثته عن قميصي القديم
وعن سفرة في الممالك افتح للشعر
خارطة واقول القصائد قد اوفدتنا
الى الماء رســلا ،
فلم يبصر الارض في جسدي امراة
حين اسميتها دارة الريح اعطتني
الخيل قافلة قافلــة)

ــ ٤ ــ

جليلة عاشقة مثلها الخيل والريح
تمشي على جرف اسمائنا ،
نبصر الارض في عروة الليل قانية ،
مرة تبلــغ الريح اسماعنــا
فنرابط بين اثنتين :
المسافــة والماء ،
نخلع قمصاننــا ،
ونسابق في الريح خيل القصائد
من اي قافلة انت تنتظرين الغلام
المسمى بأسمائنــا ؟
هذه الليلة انتصب العشق فيهــا
جوادا على الريــح ،
فانتظري الان وجهي الذي غبرته المداخل
يكشف عن قارة الخيل في جرفه ،
ويهيل الممالك في كتب السفر ــ الشعر
مملكة مملكــة .

عن الخيــل اكتــب :

تستفيق الريح في لحم البغال
انا وريث الارض ،
صوتي مضفة الخيل ــ القرابة
اشتهي لحم الجياد على نساء المملكة
وجهي بلون غرائز الارض ــ السماوة
يستوي لحمي بنار الحمحمة

السفرة الثانية :

الصوت الصارخ في البريــة

ــ ١ ــ

اسمعنــي خطبته ،
كان يدق الشعر في حوافر الخيــل
ويشرب النبيذ في اقداحه
ويترك الثوب على طاولة الهواء
(أين انت الان من قصائد البوح
ومن قصائد الكتمــان)
كان يقطع السبيل عنــوة
يخلع ثوبه ويرتديه
(أين انت الان ،
دلني اليك الوجد في الخمرة)
كان يقطع السبيل خطوة فخطوة
يلف ثوبه على حوافر الخيــل
ويشرب النبيذ في اكمامه
ويدخل البيت الذي اقامه من
وبر الانعــام ،
خل عنك الثوب ،
خل عنك الجسد ــ الاحمال
والق عظة الوجه الذي نراه في
كتابنا مدائح السفر .
مغتسلا في دمعة الممالك ــ
الارض التي هوت وانكسرت
(يا خيبة الارض)
وكم مليكــة عشقت ،
كم من نسوة ادخلتهن ثوبك ــ
البيت الذي اقمته من حجر الافنان ،
ان جندك الايتام قد توافدوا
واكملوا البيعــة
وانتظروك سنة فسنة ،
كي تمنــح العشق نصابه
وتمنح الارض علامة التجريب ،
أين انت الآن من قصائد البيعــة
يوم البيــع .

يوم البيــع :

عجل بالبيــع ،
اقام سوقه على مشارف البلدة
رص خيله الايتــام ،
كان جائعا فمد مائــدة
ـ تفضلي يا امرأتي المعبدة ـ
أخرج من صرته فطيرة الفناء ،
كان عاشقا فأدفأ الصوت على
قماشة الهواء ،
كان حافظا اسماء من ترجلوا وباعوا
منتظرا نسوته يمشين في سرادقات السوق ،
يشترين ثوبه الذي يبــاع

ـ ٢ ـ

رأسه كــان نزقــا،
مشتعلا بالزبد الصخري
والكتابــة الصفــراء
يركن حيث تجنح الخطوة ،
(لا يرى سوى اناء فارغ
وكسرة من رغف الصحراء)
يقرأ فــي ماجوره :
لو انني لم امنح الشعر وبيت المال
ـ اشتري خيول وطني المباعة
ابحث في الاسواق عن خرائط البيت ،
وعن قصيدتي المضاعة ـ
لكنت قد شهدت عرسك الاخير ،
موتك الذي اضاعني
ـ ابحث في الاسواق عن مرثية ،
زمان امرأة تعشقني ـ
لعلهــا ترانــي
من حجر في البيــت
من كسرة يوم عابــر
من جلسة في حضرة الموت على
مائدة السلطان .

مرثيــة :

سألته في يوم موته عن موضع الداء
وعن حافظــة البيــت ،
رأيت نعشه مرقما من وبر الصحراء
كان رأسه مدلى على بناية الخمارة ،
النسـاء كـن يختبرن جسدي ـ البيت
الذي اقمته سرادقا في السوق ،
(أيــن أنت الان ،
دلني اليك الوجد في الخمرة ،
والعقدة في فصاحة اللسـان)

السفرة الثالثة

فصل التدويــن

أغنيــة :

نبتت فوق جلد المداخل اربعــة
من جيــاد السفــر
فارحل الآن ،
(أحمرها مولع بالرياح)
خذ الارض مركبة والسماء الدليل ،
فبين السماوة والارض اسماء
من يغبقــون ،
ولا تمنح الخيل اسماءها ،
واستعن بالغناء على الهاجرة .
خطبت اختنــا ،
وارتدى البيت كسوته العائلية ،
مدت فطائرنــا في وعاء السموأل ،
واقرأ على اختنا عظة الاهل :
الا تغير جلد المداخل في ليلة
الخطبة الثانيــة .

ـ ١ ـ

كان كتاب القصائد ملقى على العشب ،
من اي قافية نحن ننتظر الشعر قافلة
(كان في ورق الذاكــرة
لونهــا السفري القديم ،
فأحمل احطاب وجهي الــى
موضع القدم ـ النار)
ان الفضا خطوة ،
عل في آخر الارض بيتا نروضه
ونورثه للجياد ونهــدأ ،

أدخل ذاكرة الارض مهتديا بالحفيف :
هنا آخر الارض ،
آخر قاراتنا المعلنة .
اي القبائل تفتح لي دارها
فأرجل عن جسدي الطير ،
ألبس في غبرة الليل اوسمتي والنياشين ،
(يا أيها الملك المترجل
ان رجالك لا يبدأون النزال
بغير الاعنة ،
مر خيلك الملكية تنزل)
أكتب ..
في كل زاوية حجر
وبقايا ثياب ممزعة
ووجوه ملصمة في الهواء
ومنشفة للدموع ،
ووقع خطى وجلاجل ـ
أوسمة ونياشين ،
(يا ايها الملك المترجل
ان رجالك لا يبدأون النزال
بغير الاعنة ،
مر خيلك الملكية تنزل)
أكتب :
في خطبة البيعة ـ الملك أشرى
لعائلتي نخلة يبصرون بها الارض
وامرأة يعشقون بها الخيل عند
النزال وريحا مسهرجة في الاناشيد ـ
اوسمة ونياشين ،
(يا ايها الملك المترجل
ان رجالك لا يبدأون النزال
بغير الاعنة ،
مر خيلك الملكية تنزل)

– ٢ –

ان الممالك قد أوفدت رسلها
يطلبون نساء ابي ،
وانا المتودك في العشق
اقبل ما تهب امرأة البيت
أحمل اسماءهنا خفية
وأكلم من كان لا يقتني امة
فنساء ابي يشتهين ،
(تلاصقني امرأتي خفية
وتضب على جسدي لحمها)
وانا المتودك في العشق
اعبر خارطة البيت ،
(ان ابي كان يسألني :
ـ ان عبرت المضيق فهل تعبر الخيل ؟
ـ تعبر ،
اقسم ارغفة الملك بيني وبين عشيرتي ـ الخيل)
وأنا المتودك في العشق
اقبل ما تهب امراة البيت من خمرة
في غبوق العشية .

قراءة :

كيف استطاع القمر المدسوس ان يطول
يعتلي سديلة الارض ،
يجاور الخمرة في انائها
(أرى نساء البيت يحتسين خمرة ،
يمشين في سرادقات الجسد المنصوب)
يدخل البيت معربا في لفة الكتابة ـ
القراءة ـ الرقص على درابك البيعة
(فالنسوة في قصائد العشق معلقات)
يدخل البيت مصاهرا عشائر الحراس ،
ثم يطلب الجلسة فوق مقعد الجلوس .

السفرة الرابعة

فصل البيعة

– ١ –

وأنا احمل الوطن المستحيل
نخلة وكتابا وبهجة ريح ملوثة
(حين ابصرني الماء من جرة الليل
قلت اسقني خمرة ،
واسقني بعدها الماء ،
وارسم على جسدي تمرة العائلة)
هذه الليلة الفاصلة

كنت فيها المسافـر
والنجم حوذيه ،
اوقعتني المسافة عن خطوة الريح ،
فارتطمت رئتي بالهواء المطارح :
وأنا في خوذة الريح الجواد
كنت مقتولا برمح الكلمات الضيقة
راكضا في صفحة الارض ــ الكتابة
حينما ألقت سحابة
حملهـا ،
ابصرت في لحمي جوادي واصلا
ما بين لحمي والهواء
عاقدا ما بيننا صلحا ،
فهذي الارض اعطتني قواميس الفناء :
« هاتها خمـرا
فهذا اليوم أمـر ،
واسقني حتى تفوح الارض في لحم
الجياد الميتة » .

ــ ٢ ــ

أرى امرأة بايعتني الى رقصة الماء
فاجتزت دارتهـا ،
وانتظرت علامتها ــ الشارة الطوطمية ،
اعلن انك شاهدتـي ــ
الوردة المستحيلة في شجر الليل ،
افتح نافذة للعصافير والخيل
(ان حديقتي انتظرت وحدها قمرا
فالعشائر صادرت الليل)
أعلن انك في جسدي الرعشة ــ
النبض مرتحـلا ،
كانت الارض راقدة في سريري
ــ لا نبصر النجم مقتربا ــ
غير ان الدم المتخثر في آخر الليل
يترك في جسد الارض ايقاعه المتراجع ،
آنا تكونين لي حانة يكسر الوجد فيها
جرار الشهادة ،
آنا تكونين صوت المخاطب في السوق
ــ ابحث في السوق عن خطبة الملك ــ
آنا تكونين قافلة يتوحد فيهـا
المسافر بالنجـم ،
ــ لا نبصر النجم مقتربا ــ
غير ان الدم المتخثر في آخر الليل ؛
يترك في جسد الأرض ايقاعه الملكي
الذي يتراجع

ــ ٣ ــ

كان لي قمر وقميص اعبيء فيه
حصى الليـل وامرأة حين اسميتها
دارة النوم اعطتني الماء من جرة الثدي ،
لم يبق الا النعاس على حجر في الطريق
وتختبيء الارض في دارة حين اسميتها
دارة الخيل اعطتني الريح مملكة ،
كانت الريح انثى تزوجتها فامتلكت بها
قسمـة الارض ،
قالوا انتظرنا طويلا ولكننا آه ،
ان النعاس الجميل ارتدى مرة ثوبه
ثم سار الى السوق يبتاع لي بيعة
وقميصا اعبيء فيه حصى الارض
وامرأة تدفع الدين عن قائس الريح ــ
هذا الجواد المكبـل ،
لكنني كنت في ثكنة الليل منتظرا
طائر الصرخة ــ النوم ،
يفتح لي حانة السفرة الخامسة .

القاهرة

مهدي عيسى الصقر

عندما تبدو كل الرياح ساكنة

(حكاية عن الاطفال ...)

الهواء ساكن .. يبدو ساكنا . وسرب من الحمام الابيض والرمادي يحلق في السماء الزرقاء الصافية ، يرتفع وينخفض ، يحوم حينا حول منارة مسجد قريب او ينساب قريبا من رؤوس النخيل والاشجار وانتينات التلفزيون ، والثياب الملونة المغسولة المنشورة على الحبال فوق اسطح المنازل . ومن فتحة باب الدرج المعتم فوق احد السطوح يخرج صبي في الثانية عشرة او اكثر قليلا يحمل بيده طائرة ورقية بيضاء كبيرة يتبعها ذنبها الطويل ، المصنوع من سلسلة من الحلقات المختلفة الالوان ، مثل افعى كبيرة تمرق بخفة من ظلام الدرج الى السطح المشمس . يتطلع الصبي حوله لحظات . لا أحد . النخلة الوحيدة المنتصبة في فناء الدار تنشر سعفها الكثيف الداكن الخضرة مثل خيمة كبيرة تلقي جانبا من ظلالها السوداء الباردة فوق رأس الصبي الواقف الآن على السطح . يضع الصبي بكرة الخيط على الارض يرفع ذراعه بالطائرة ، يرخي لها الخيط ثم يشده وهو يتراجع الى الوراء . تختلج الطائرة في الهواء الساكن لحظات قصيرة ثم تتطوح وتهوي الى السطح مثل حجر ، ذنبها الطويل يرقد الى جانبها كومة من الالوان الزرقاءوالحمراء والخضراء فوق البلاط الاصفر الشاحب . ينحني الصبي عليها ، يرفعها عن الارض ، يعدل الخيط ويعاود المحاولة . ترتفع الطائرة قليلا ، يترك لها الخيط ثم يبدأ بشده في حركات صغيرة متتالية متراجعا بخطى سريعة والطائرة ترتعش في الهواء فوق رأسه . يصطدم بالحاجز الحجري الذي يفصله عن السطح المجاور ، يتوقف . تترنح الطائرة ثم تنقلب على ظهرها مثل سمكة كبيرة مسمومة وتهبط الى الارض من جديد . يحملها الصبي ويمضي بها الى بداية السطح متحاشيا الاصطدام بسعف النخلة الهابط من فوق الجدار .

على السطح المجاور تصعد صبية في العاشرة ترتدي ثوبا احمر وتحمل بين يديها سلة صغيرة زرقاء من (البلاستيك) تمتليء بقطع ثياب مغسولة . تقترب من حبل الغسيل الممتد في الشمس مثل خط ابيض ، تضع السلة على الارض ، تتناول قطعة ملفوفة ، تنشرها ، ثم تقف على اطراف اصابعها وترفع ذراعيها بالثوب وترمي به على الحبل . يتهدل الحبل تحت ثقل القماش المبلل ويصبح بعد ذلك من السهل عليها نشر القطع الاخرى دون الحاجة الى الوقوف على اطراف اصابعها . عندما تهم بنشر القطعة الثانية من الثياب تلمح الصبي المنشغل بطائرته الورقية على السطح المجاور . تترك سلتها الصغيرة مهملة اسفل حبل الغسيل وتتجه صوب الحاجز الذي يفصل بين السطحين . الصبي يقف بعيدا عنها وظهره اليها وهي لا ترى وجهه ، ولكنها تستطيع من مكانها ان ترى – من بين ثنايا السعف ومن خلال الشقوق بين الخوص الاخضر – شعر راسه الاسود المصفوف بعناية واجزاء من بيجامته البيضاء المخططة بالازرق وطرفا من طائرته الورقية البيضاء وذيلها الملون الطويل . وتستطيع ان تلمح ايضا – بين حين واخر – وميض ساعته اليدوية الفضية اللون كلما تكسرت عليها اشعة الشمس وهو يطوح بيده الممسكة بخيط الطائرة في محاولاته المتكررة والعنيدة لجعل الطائرة تطير . تتشبث الصغيرة بحافة الجدار ، تجعل ذقنها يستقر على ظاهر كفيها وتتابع حركاته باهتمام .

يضع الصبي اصبعه في فمه ثم يخرجه ويرفعه في الهواء محاولا معرفة اتجاه الريح . يشعر ببرودة خفيفة تلف اصبعه المبلل من جميع الجهات . يقف حائرا بعض الوقت ، ثم يرخي الخيط قليلا لطائرته ويسحبها بقوة وهو يمشي الى الوراء . يرتطم ظهره برؤوس السعف ، يتنحى عنها فيتعثر بالبكرة التي تروح تتدحرج فوق السطح حتى ترتطم بالجدار مخلفة وراءها ، على البلاط الاصفر ، خيوطا متشابكة دقيقة بيضاء يعلق بعضها بقدميه . يسمع ضحكة ناعمة متصلة وراء ظهره . يلتفت يرى وجه الصغيرة المدور المحمر من الشمس ومن الضحك وهي لا تزال تكركر وراسها يهتز فوق الحاجز . يرمقها

منها ، وهكذا بقدر ما تتوجه الرواية للكادحين من ابناء وبنات فلسطين لتعرفهم بأنفسهم وتبلور لهم الكامن في داخلهم ، تتوجه للمثقفين لتكون معرفتهم بأم سعد ، تماما كمعرفة الراوي ، درسا عن الشعب والتاريخ والثورة .

ان ام سعد ، كأمرأة ثورية ، ترى الكامن في اللحظة وتكتسب القوة من رؤيتها ، انها لا تراه لتمكنها من منهج بل بفريزتها وتمرسها في الحياة . انها تحمل وتعرف ان النطفة بداخلها سوف تكون طفلا ينمو امام عينيها ليصير رجلا أو امرأة، حملت بسعد وسعيد وولدتهم وتعهدتهم بالرعاية حتى كبروا . ولقد أعطاها تمرسها هذا المعرفة بمعنى الحياة ، قوة النماء الكامنة في الاشياء . ولذلك فهي في لحظة الهزيمة تزرع دالية ، لانها لا تهزم ، والدالية تبرعم .. لا بد .

ويفلح غسان كنفاني في خلق شخصية هي مزيج من الاسطورة والانسان العادي ، بل لعلها هي الاسطوري الكامن في العادي من البشر . ويحقق غسان هذا التوازن بالتصوير الواقعي للشخصية من ناحية ويربطها من ناحية اخرى بمجموعة من الصور الدالة التي ترقى بها الى مستوى الرمز . ان ام سعد تقدم لنا كأمرأة فلسطينية تسكن المخيم ، تعيش من العمل اليدوي البسيط : تغسل وتمسح وتنظف في مقابل قروش قليلة . وبيتها بالمخيم طيني وفقير تغرقه مياه الامطار بين حين وآخر . وزوجها، أبو سعد ، انسان محبط يعمل حينا ولا يجد عملا أحيانا وهو يفرغ احباطه في معاملته الفظة لاهل بيته ولكل من حوله . ويظهر في الرواية لام سعد .. ولدان هما سعد وسعيد ، ولا نستطيع ان نجزم ان كانا هما كل ابنائها ، والارجح ان هناك آخرين ولكننا لا نراهم .

ويذهب سعد ليصير فدائيا بعد هزيمة ١٩٦٧ ، ولا تخاف أم سعد عليه بل تشجعه وترى في ذهابه مفخرة . وحين تحكي ام سعد للراوي ـ (المثقف) عن التحاق ابنها بالفدائيين يكون رد فعله تقليديا ، فهو يتصور انها تقول له ذلك لانها قلقة على ابنها ، خائفة على فقده . ولكنها تفاجئه بموقفها : « أتدري ؟ ان الاطفال ذل ! لو لم يكن لدي هذان الطفلان للحقت به . لسكنت معه هناك . خيام ؟ خيمة عن خيمة تفرق !.. لعشت معهم ، طبخت لهم طعامهم خدمتهم بعيني .. ولكن الاطفال ذل » (ص ٣٦٥) ان كلمة ام سعد العظيمة « خيمة عن خيمة تفرق » تكشف عن وعي عظيم بالفرق بين خيام اللاجىء وخيام الثوري .. بين خيام الجحيم الفلسطيني وخيام المطهر والخلاص . انها تعرف بوعيها المتقدم ان خيمة المنفى « حبس » ، اما خيمة الفدائي فهي اختياره الحر لطريق مستقبله . انها تقول للراوي عن سعد الذي رفض ان يوقع ورقة استنكار بالسجن حين كان محبوسا :

« اتحسب أننا لا نعيش في حبس ؟ ماذا نفعل نحن في المخيم غير التمشي داخل ذلك الحبس العجيب ؟ الحبوس أنواع يا ابن العم ! أنواع ! المخيم حبس ، وبيتك حبس ، والجريدة حبس ، والراديو حبس ، والباص والشوارع وعيون الناس ، أعمارنا حبس ، والعشرون سنة الماضية حبس ، والمختار حبس .. تتكلم أنت عن الحبوس؟ طول عمرك محبوس » . (ص ٢٥٥)

وان أم سعد ترى في الاختيار الحر خلاصا وحيدا من مذلة تفرض على الانسان .. واختيار سعد ، في الحبس ، الا يوقع ورقة استنكار كان اختيارا حرا ، ومن هنا فحبسه ليس حبسا .

لقد عاشت أم سعد كل حياتها غارقة في وحل مخيمات المنفى ، تقول : « لا أريد ان اموت هنا، في الوحل ووسخ المطابخ . » (ص ٢٧١) انها ، تماما كما يختار سعد الذهاب ، تختار هي ان ترسل ابناءها واحدا وراء الاخر للخيمة الاخرى ، خيمة الفدائي . ان ارسالها لابنائها موقف واختيار حر ووعي بأنه « اذا لم يذهب سعد ، فمن سيذهب ؟ » (ص ٢٦٣) .

ولعل هذا الموقف هو نقطة التقاء ام سعد الواقع بأم سعد الاسطورة في الواقع . وفي محاولة بناء هذه الشخصية الواقعية الرمزية يربط غسان كنفاني أم سعد بمجموعة من الصور التي ترافق الشخصية من اول الرواية الى آخرها . وتنبع هذه الصور من ثلاثة مصادر أساسية : الارض والمخيم والمستقبل ، ترد احيانا منفردة واحيانا تجتمع في صورة واحدة .

تظهر ام سعد أول ما تظهر بالفقرة الاولى من الرواية « قادمة من رأس الطريق المحاط بأشجار الزيتون » ، تبدو « مثل شيء ينبثق من رحم الارض » ، وهي تمشي بقامتها العالية « كرمح يحمله قدر خفي » وفي الفقرة التالية مباشرة ترتبط الصور الثلاث بايحاءاتها المتعددة ، ان هذه المرأة تأتي ، وانها مرتبطة بالارض ، وانها تتجه للمستقبل ، في صورة واحدة جديدة مركبة : « هذه المرأة تجيء دائما ، تصعد من قلب الارض وكأنها ترتقي سلما لا نهاية له . » (ص ٢٤٥)

ام سعد ، حين يبتل شعرها في المطر « يبدو وكأنه تراب مسقي » (ص ٢٦٩) وحين تبكي تجيء دموعها « مثلما تتفجر الارض بالنبع المنتظر منذ اول الابد . » (ص ٢٧٠) ساعدها « يشبه لون الارض » (ص ٢٧٨) ، وراحتاها « تشبهان جلد ارض يعذبها العطش . » (ص ٢٩٣) .

وأينما تذهب ام سعد تحمل معها صرتها ، هويتها الفلسطينية الكادحة ، وأينما تكون تفوح رائحة الريف والمخيم، يجتمع فيها الماضي والحاضر .. وأيضا المستقبل. وينوع غسان في صورة الرمح التي ربط أم سعد بها في اول الرواية ، فهو تارة رمح وتارة علم وتارة نبع .

وترتبط ام سعد ايضا بفرع الدالية الذي تزرعه في

شديد الحماس وبين معتقد بانهـا اجتهاد متواضع لا يرقى الى مستوى الرواية . وفي رأيي ان هذه الرواية التـي جاءت ، كمـا قال غسان نفسه ، ردا من ناحيـة الشكـل على « مـا تبقى لكم » (١٩٦٦) هي محاولة جريئة من قبل كاتبها في ارتياد شكل تجريبي ، فبناء الرواية مفكك غير عضوي ، وهذا ليس عيبا فنيا في العمل ، ولكنه انجاز يفرضه موضوع الرواية . ان غسان يختار للتعبير عـن تجربته بناء ملحميا وليس عضويا لانه لا يقدم حدثـا واحـدا يتصل بفرد او بجماعـة بل مجموعة من احداث تخص شعبا وواقعه التاريخي ، وفي مجملها تشكل هذه الاحداث معنى كليـا . ان اللوحات التسع التي تتكـون منها الروايـة والتي تشكل ، كل منهـا على حدة ، وحدة منفردة . يمكن ان تتسع لما لا حصر له من اللوحـات الاضافية ، ما دامت جميعهـا سوف تصب في هذا المعنى الكلي الذي اشرنا اليه . ونلاحظ ان العديد من الكتـاب الذيـن يتناولون الواقع التاريخي لامة يلجأون لهذا الشكل غير العضوي والذي قوامه وحدات منفصلة قابلة للزيادة او للنقصان . ولقد اختار الكاتب الفلسطيني اميل حبيبي في روايته « الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد ابو النحس المتشائل » (١٩٧٥) نفس هذا البناء . ورغم الاختـلاف الكبير بيـن الروايتيـن وبيـن شخصيتي المتشائل وام سعد وزاويـة التناول التي يختارهـا كل من الكاتبين ، فهنـاك شيء اساسي مشترك بين العملين ، الا وهـو التصدي لواقع صمود امة للهزيمة الكاملـة عبر مسيرتهـا التاريخيـة . يختار غسان كنفاني لموضوعه البطولـة والاسطورة الكامنـة في الانسان الكادح والعادي ، ويختار اميل حبيبي شخصيـة فكاهيـة هي عكس البطـل الاسطـوري في الملاحم القديمة ليقدم من خلاله الملحمـة البطوليـة لصمود شعب .

واتذكر بهذه المناسبة حادثة دالة تفيدنا في هـذا السياق . فلقـد كنت مرة احضر نـدوة لاحد الشعـراء الفلسطينيين الذي القى قصيدة سردية تتناول تاريـخ الشعب الفلسطيني من ١٩٣٦ الى ١٩٧٠ والقصيدة مكونة من افتتاحية وعدد من هذه الوحدات المنفصلة الـ episodes وخاتمة . وحين انتهى الشاعر من قراءة قصيدته قام احد الطلاب الذيـن كانوا بالندوة وقال معترضا انه لا يفهـم كيف يكـون لقصيدة من هذا النوع خاتمـة فمـا دامت القصيدة تتناول تاريخ شعب ونضاله ومـا دام النضـال مستمرا فلا يمكـن ان يكون هناك خاتمة ! وضحـك الحاضرون اذ بدا لهم ان هذا الشاب لا يفهم الفارق بين الحياة والفن . والواقع ان ملحوظة هذا الشاب كانـت تحتوي حكمـة افادتني ، ذلك انه بتلقائيته السليمة وعى ان هذا النوع من البناء يحتمل اضافات لا نهائية والوحدات الداخلية التـي تشكله يمكـن ان تزيـد معبرة عن حلقات جديدة في الواقع التاريخي المعبر عنه . والخاتمة في هذه الحالة ليست خاتمة بقدر مـا هي خلاصة شعرية من نوع ما تكـون صالحـة حتى فـي حالة زيـادة او نقصـان هـذه الوحدات الداخليـة .

ان روايـة « ام سعد » تنتمي لما يسمـى بالادب القومي ، اي هذا النوع من الادب الذي يضطلع بتقديـم صورة الذات القوميـة في مرحلة معينة من تاريخها . انها روايـة فلسطينيـة تؤكـد الماهيـة الوطنيـة للانسـان الكادح الفلسطيني اثناء كفاحه مـن اجـل النهوض والتحرر . ويلتزم غسان كنفاني في روايته بالعديد مـن سمات الروايـة الاشتراكية كمـا أصلها النقاد والكتـاب الاشتراكيـون . ومن هذه السمات التي نجدها فـي « ام سعـد » :

اولا : الانحياز للانسان الكادح ، وبمـا ان غسـان فنان اصيل وليس ناقلا فهو يعي تمامـا ان صورة الكادح الفلسطيني في اكثر اشكـالهـا الدالـة ليست صورة العامل البروليتاري بل صورة ابـن او بنت المخيم . ان المخيم هو وقود الثورة الفلسطينية ، ورغم ان هذه الثورة ثورة تحرر وطني يشارك فيهـا الكادحون والطبقـة الوسطى على السواء ، الا ان سكان المخيمات دفعوا وما زالوا يدفعون ضريبة التحرير اكثر من كل الاخرين . ان اكثر من ٨٠ بالمئة من شهداء الثورة من سكان المخيمات .

ثانيا : اهتمام غسان بان يصور ميلاد الغد من رحم اليوم ، اي تركيزه على ديالكتيكية الحركة في الواقـع الفلسطيني والتي تؤدي الى انماط اجتماعية اكثر ثورية .

ثالثا : التفاؤل ، والتفاؤل هنـا ليس تفاؤلا اهوج او مفروضا من قبل الكاتب على الواقع بل هو استشراف للمستقبل منبعه معرفة القوى الفاعلة في الحاضر واتجاه حركتها . ان التفاؤل الذي يعبر عنه غسان في روايـة « ام سعد » تفاؤل ينبع من ايمـان شديد بقدرة الشعب الفلسطيني على تجاوز الهزيمة عبر الثورة وعبر تقديم كل ما تتطلبه من تضحيات جسام . انه تفاؤل من يعرف ان الحاضر ليس لحظـة متقطعـة الجذور ، منعزلة كجزيـرة موحشة وسط بحر متلاطم ، بل هي وجود في حركة تاريخ لها جذور في الماضي وحركة تتوجه للغد .

رابعا : التعليمية ، ونعود ثانية هنـا لما قالـه غسان في حديث اذاعي سبق ان اشرنا اليه في فصل سابق عن روايـة « مـا تبقى لكم » . يقول غسان ان هذه الروايـة جعلته يتساءل لمن يكتب ، وانه توصل الى ان هدفه مـن الكتابة هو الوصول الى الناس وان تصبح كتابته جزءا من الثقافـة الموجودة . ولقد وجدت هذه الاجابة النظريـة تعبيرا فنيـا في روايـة « ام سعد » . فعلـى الرغـم من ان كلا من « ما تبقى لكم » و « أم سعد » روايتـان تجريبيتان ، الا انه بقدر مـا تتسم الاولى بالصعوبة نتيجة لاستخدامها اسلوب تيار الشعور والتداعي الذي لم يألفه القاريء العربي ، تتسم الثانية بالسهولة الشديدة حتـى

انه يمكن وصولها ببساطة لاي شخص بامكانه القراءة. وكل لوحة من اللوحات التسع في الرواية تقدم درسا للراوي على يد ام سعد ويكون هذا الدرس في نفس الوقت درسا واضحا ومحددا للقاريء نفسه .

ان هذا الجانب التعليمي من الرواية صفة من صفات الادب الاشتراكي ، وتبني غسان له في روايته لا يشكل فرضا مفتعلا لآرائه بل يشكل جزءا اساسيا من مضمون الرواية ذاتها . فرواية « ام سعد » ، كما سبق واشرنا، في مجملها ، هي درس تعطيه ام سعد للراوي . ونتوقف هنا وقفة قصيرة عند الدور السلبي للراوي ونتساءل ان كان المقصود به ان المثقف ، في مدرسة الشعب ، يصبح مستقبلا مستفيدا على طول الخط ، وكأنه يتحول الى طفل صغير ينهل من معرفة استاذ عظيم ؟ ثم نتساءل ان لم تكن هذه الصور للمثقف الثوري مجحفة به وبدوره كطليعة ؟ وهل العلاقة بين المثقف والجماهير علاقة من جانب احد ، ام هل اراد غسان ان يقدم هذا المثقف المهزوم نفسيا لحظة الهزيمة في طور اعداده ، على يد ام سعد ، لكي يكون ثوريا ؟ ان مقدمة غسان القصيرة للرواية قد تحمل شيئا من الاجابة على هذه الاسئلة خاصة حين يقول « اننا لم نتخرج بعد من مدارس الجماهير . » وقد يكون في هذه الاجابة بعض التبرير لسلبية الراوي وان لم يكن فيها التبرير الكامل المقنع. وبصرف النظر عما اذا كان غسان كنفاني قد رأى في تخلف المثقف عن الجماهير الثورية صفة دائمة او وضعا عارضا يتم تجاوزه ، تظل هناك حقيقة واحدة مؤكدة وهو ايمانه بان الجماهير في حركتها مصدر لمعرفة لا تنضب وان على الفن ان ينقل جزءا من هذه المعرفة فيؤدي بذلك جزءا من دوره التعليمي النابع من صميم ارتباطه بحركة التحرر الوطني لهذه الجماهير .

***

في عام عام ١٩٦٩ نشر غسان كنفاني عملين روائيين هما « ام سعد » ، و« عائد الى حيفا » . وعلى الرغم من كتابة الروايتين في الوقت نفسه تقريبا ، الا ان بينهما فارقا كبيرا في المضمون والشكل والمستوى الفني . ففي حين تتناول « ام سعد » كادحي المخيم في صلابتهم وانطلاقهم في ثورتهم المسلحة ممثلين في ام سعد واسرتها تقدم لنا رواية « عائد الى حيفا » شخصيات من الطبقة الوسطى الفلسطينية التي لم تفقد وضعها الطبقي بفقدها للوطن . ويلتزم غسان في تصويره للحدث شكلا يختلف تمام الاختلاف عن الشكل الذي استخدمه في روايته السابقة ، فهو هنا يقدم حدثا واحدا له بداية ووسط ونهاية وتسلسل يعرض علينا في بناء عضوي.

سعيد س . ووزجته ، اللذان كانا قد غادرا حيفا تحت القصف في نيسان عام ١٩٤٨ تاركين وراءهما ابنهما البالغ خمسة شهور واللذان لم يستطيعا العودة اليه لاخذه ، يعودان بعد فتح الابواب بين المنطقة المحتلة في ١٩٤٨ والضفة المحتلة في ١٩٦٧ لزيارة بيتهما القديم في حيفا . وهناك يجدان امرأة اسرائيلية تسكن في بيتهما وقد تبنت الطفل الذي صار ضابط احتياطي في الجيش الاسرائيلي . وتحدث مواجهة بين سعيد وزوجته من ناحية وابنهما خلدون من ناحية ، والذي صار اسمه دوف ، فينكرهما الابن . ويعود سعيد وزوجته صفية الى الضفة وقد حدث نوع من الاكتشاف ــ المعرفة الذي يؤدي الى تبدل في موقفهما من اشتراك ابنهما الاصغر خالد في المقاومة المسلحة . قبل ذهابهما كانا يعترضان على تطوع خالد . اما بعد زيارتهما لحيفا وانكار خلدون ــ دوف لهما فيتمنى الاب ان يعود فيجد خالد قد عصاه وترك البيت والتحق بالفدائيين .

ان مواجهة سعيد وزوجته بحيفا بعد عشرين سنة من تركها وبابنهما خلدون بعد سنوات طويلة من فقده ، تجسيد لمواجهة جيل فلسطيني كامل بمسئوليته في فقد فلسطين وبعقم موقفه المتباكي من هذا الفقد على مدى عشرين عاما كاملة . ولقد اراد غسان ان يجسد هذه المسئولية بشكل صارخ حين جعل سعيد وزوجته يتركان وراءهما طفلا رضيعا لا يتجاوز عمره خمسة شهور . ان دوف ، الذي كان في الاصل خلدون ، يسأل امه بالتبني بعد ان قابل والديه الاصليين بجفاء واستهزاء «ماذا جاءا يفعلان ؟ لا تقولي انهما يريدان استرجاعي ! » (ص ٣٩٨) ثم يوجه الكلام لهما حين يسألانه ما الذي كان بامكانهما ان يفعلا :

« كان عليكم الا تخرجوا من حيفا . واذا لم يكن ذلك ممكنا ، فقد كان عليكم بأي ثمن الا تتركوا طفلا رضيعا في السرير . واذا كان هذا ايضا مستحيلا فقد كان عليكم الا تكفوا عن محاولة العودة .. اتقولون ان ذلك ايضا كان مستحيلا ؟ لقد مضت عشرون سنة يا سيدي ! عشرون سنة ! ماذا فعلت خلالها كي تسترد ابنك ؟ لو كنت مكانك لحملت السلاح من اجل هذا . ايوجد سبب اكثر قوة ؟ عاجزون ! عاجزون ! مقيدون بتلك السلاسل الثقيلة من التخلف والشلل ! لا تقل انكم امضيتم عشرين سنة تبكون! الدموع لا تسترد المفقودين ولا الضائعين ولا تجترح المعجزات كل دموع الارض لا تستطيع ان تحمل زورقا صغيرا يتسع لابوين يبحثان عن طفلهما المفقود .. لقد امضيت عشرين سنة تبكي .. اهذا ما تقوله لي الآن ؟ أهذا هو سلاحك التافه المفلول ؟ » (ص ٤٠٦ ــ ٤٠٩).

ويكتشف سعيد ازاء هذه المواجهة القاسية ان فلسطين كانت له حائطا يبكي عليه وجنة يتحسر على فقدها، وموقف سعيد هذا ظل شائعا لسنوات طويلة بين الفلسطينيين وانعكس في نتاج العديد من كتاب الفترة .

ان سعيد يتساءل وللمرة الاولى عن معنى الوطن ويكتشف ان فلسطين كانت دائما بالنسبة له ماضيا

يبدأ بالموقف فتطور الحدث ثم اكتشاف يؤدي الى تغير فالنهاية ، والكل مترابط في بناء عضوي قوامه حبكة اساسية واخرى فرعية . أن غسان باختصار يختار البناء الكلاسيكي كما قدمه وشرحه لنا ارسطو قبل الفي عام في كتابه « الشعر » ولكن البناء وحده لا يخلق عملا فنيا جيدا .

ولعل احد الامور التي تعرض لها غسان في« عائد الى حيفا » وكان جهده فيها رياديا ، محاولته الجادة لتقديم انسان يهودي اسرائيلي كشخصية روائية . وهو ما لا اعتقد انه تم على يد اي اديب عربي قبله . فالاسرائيلي في الادب العربي يقدم كعدو وبالتالي فلا تتم اية محاولة جادة لمواجهة انسانيته فنا ، انه يقدم عادة في شكل كاريكاتوري مثير للضحك او منفر . اما غسان فقد اختار رجلا وامرأة من المهاجرين الاوروبيين الهاربين من مذابح النازية هما ايفرات كوشن وزوجته ميريام . انهما يهوديان عاديان ان كانا يحملان مسئولية الاستيطان في ارض على حساب اهلها فهما في نفس الوقت ليسا من عصابات الصهيونية ، بل ان الحلم الصهيوني كان خدعة لهما بدرجة من الدرجات . ان ميريام البولندية الاصل ترى في الطفل العربي المقتول صورة اخرى من اخيها الذي قتله النازيون في اوشفيتز ،وهي ترغب في العودة مرة اخرى الى اوروبا . انغسان كنفاني يربط بواسطة تقديم هذه الشخصية وتاريخها ، لاول مرة في الادب العربي ، بين عذاب المضطهدين في كل مكان ، عذاب الانسان الفلسطيني على يد الصهاينة وعذاب الانسان اليهودي على يد النازية . اننا نتعاطف مع ميريام في الرواية ، وفي اعتقادي ان هذا انجاز . ولكن التسرع الذي تتسم الرواية به قد ترك اثره على شخصيتيميريام وزوجها اللتين كان من الممكن ان يقدما للقاريء بشكل اكثر عمقا ، كان من الممكن ان يكون غسان اكثر جراة من الناحية الفنية فيصور العالم الداخلي لشخصية يهودية من نوع ميريام او افرات .

ان غسان كنفاني ، فيما يبدو ، كان يريد ان يضع في هذه الرواية كل قناعاته الجديدة ، قناعاته عن مسئولية جيل كامل في ضياع فلسطين ، قناعاتهالخاصة بمن اختاروا حمل السلاح لتحريرها،وقناعاته ايضا بعلاقة الاضطهاد التي تربط الانسان الفلسطيني الكادح بالانسان اليهودي المعذب ، وقناعاته بامكانية التعايش فيالدولة الديمقراطية العلمانية . كانت هذه قناعات كثيرة وكانت تحتاج لبعض الوقت لكيتختمر بوجدان غسان حتى تخرج الينا في شكل فنيجيد ، ولكنه كان على عجل يريد مواكبة الحدث الفلسطيني الذي كان يتحرك بسرعة مذهلة .

***

بيان الصفدي

قصائد قصيرة

(١) البدء

قولي شيئا لم أسمع من قبل !
أعطيني حبا لم يمنح من قبل !
وخذيني لشواطيء لم تعرف من قبل !
حتى يمكنني ان ابدأ حالة حب
هذا في ادنى الحالات . . .

(٢) شيء ما

ان كان لعشقك ان يبقى مؤتلقا
فلتبتدئي الآن !.

(٣) البحر كان الشاهد

قالت لي :
ـ لا تهجرني فانا موحشة
قلت :
ـ ولكني أختنق بحمّى القهر
قالت لي :
ـ لا تنس العاشقة الكبرى
فأجبت :
ـ وكيف سأنسى
والشاهد كان البحر ؟!

(٤) أفراح صعبة

قالت :
ـ ما عدت أطيق حياتي
قلت :
ـ ولكنك تحيين
قالت :
ـ ما أصعب ان يغرقنا لج طام
قلت :
ـ صحيح !.. لكنا نقدر ان نفعل شيئا
حتى في داخل انفسنا !
فابتسمت ..
من يوم .. جاءت تخبرني في فرح ..
قالت :
ـ في الدنيا اطفال وبحار .. ومراكب
فيها ناس بسطاء كهذي الارض
وأحلام قابلة للتحقيق !

بغداد

علي الخليلي

الردى باب قريب

يحلم الشاعر بالنورس في الميناء لكن (عليًا) يحلم
الليلة بالخبز فيشقى .
آه يشقى / يهرب النورس من عينيه والميناء دغل ،
والردى باب قريـب
أيها البحر ، ولكن (عليًا) يعطش الليلة / او تمضي
السفائـن

دونه / تمضـي المدائـن
دونه / تمضي الاماني الصغيرة .

كيف ترخي شعرها امرأة بين يديه
وتمـوت ،
ويموت / تموت / يموت ...
وخز الابرة في العين وغربة من أهـوى ونوارس
يتشابك فيها الميناء حديـدا وقناديـل ملوّعـة
وحناجر مقفلـة والليل وهذا المقتول . يا زركشـة
الثوب انفجري . يا بـابـا مختبئـا . انت غريب
والاحياء يدورون على الطاحون ، يفرون الى ماء مر
وحوادث موت عادية .
عاديـة ،
عاديـة ،

وخز الابرة في العين . تصادفنا . هل تمنح قدمك
وعدا بالركض تهاجـر مـن لحـم بطون مهترئـة .
تحمل تحت لسانك في الجوع رغاء جمال العـرب
الكرمـاء واشجارا حاقدة تنفذ من صلبك اضرحـة
تعترض الطرق الضيقة وتسرق ابواب الناس . لقد
ابصرت نساء يضربن فروج الهوس وينجبن الاطفال
على آبار موحشة . ابصرت وجوها شرّدها الجدري
ولكنـي لـم ابصرك .

سأزرع الكلام في الجدار / هل ينهار / سأبـدأ
الصراخ اوقظ الكهوف والوحوش والاحجار / هـل
توقف الفرار / سأبعث الجماجم القديمة / علـى
بقايـا كل هيكل قديم / وأنصب المشانق الذميمة /
فـي قصرك الذميم / واكتب الاشعـار / هل يولد
النهـار / هل تولد الطفولة والصاحب الحميم /
حاصرك النجم ــ الوعل ــ التفاح .

وماذا تحت قميصك . افصح يا وضاح .
ما بين النهر وبين الصحراء مروج يسكنها الجدري
وصوتك في البئر يطوف ،يطوف فتضحك (روضة)
ليس الموت علامـة
ليس الموت علامـة
ليس الشعـر ...

قتلونا ايها البحر وما زال المساء
عابثا بالزبد الثلجي ، وما زال (عليّ) قمحة تنبت
في الملح ، ورأسا في المدينـة
قتلونا أيها البحر الغريب
أيها البحر ، فلا عينك مدّت جسرهـا اللوزي او
جـاء الحبيب .

اغسلينا يا شموس الوحل يا احقاد ان الماء ملح والموانيء
صفدت ريح العيون الساهرة .
فاسد قلب الفضا / فاسدة عاصمة الملك / خرافـي
غبار الليـل /
وقلبي شاسع يا بحر قلبي شاسع اوسع من جرحي
الكبير

ذوّبتني الشمس / او برد المدينة
أبر تحت الظـلال .
أيها الرثّ تعـال !
ايها الوحش الذي اطنب تحت العجلة
فاسد موعدنا حتى يكون القتل وعدا .

ــ تجاعيد ام عبث البحر / ام اننا اقرب الناس منك
اليك / نرى كل شيء ونلمس حتى رذاذ الضياء /
ونعرف عنف المدينـة
لكننا لم نخن بابها او نتكوم وراء الظلال .
ــ تداخلت / تحمل جسما وتركض / تحمل دمًا
ترش الزهـور
وقد اشعلوا جوعهم في المساء
ــ تداخلت / تحمل ماء الصخور وتركض /
هل كنت الا انكتـام الصدور / وموتك .

بيروت

رسمي ابو علي

قط مقصوص الشاربين اسمه ريس

— ١ —

اخيرا وصلنا الى البناية . كانت الساعة حوالي الثانية عشرة ليلا وثمة ولدان او ثلاثة يغسلون المدخل بالماء والصابون . كان الطقس باردا وقد تلفعت سيمون بمعطف اسود فاخر ذي ياقة من الفراء بدا غير منسجم على الاطلاق مع هيئتها المشوشة ومع بنطلونها المبتل الالوان والمتسخ في اكثر من مكان . اخذنا بصعود الدرج حتى الدور العاشر اذ ان المصعد كان معطلا والكهرباء مقطوعة. وعندما وصلنا كنا نلهث بصوت عال ، فوقفت سيمون في منتصف الممر الطويل كأنها غير متأكدة من مكان الشقة ، ولكنها سرعان ما اندفعت بتصميم نحو احد الابواب واخذت تدق عليه دقات عصبية وهي تنادي « ريّس .. ريس » بصوت حميم يبعث حنينا غامضا . وكانت قد قالت لي اكثر من مرة بانه ليس قطا جميلا على الاطلاق ، فهو قذر الهيأة وقد تطوع احدهم بقص شاربيه ، وان فروته المتسخة لا تخلو من بعض الحشرات، ولكنها استدركت بانجليزيتها الركيكة بان هذا يعود الى ايام تشرده في الشارع واما الان فانه اخذ يعود الى نظافته تدريجيا ..

فتح شخص الباب وهو يحمل شمعة ، وكان شابا ممتلئا يلبس دشداشة فاعتقدت انه ربما يكون سعوديا او كويتيا ، وتساءلت بيني وبين نفسي : « هل من المعقول انه لا يزال لدينا بعض السياح رغم الحرب ؟» واما سيمون فقد انطلقت كالسهم الى احدى الغرف وهي لا تزال تنادي « ريّس .. ريس » فشرحت لرجل الدشداشة المندهش الخائف انها تبحث عن قط صغير ، ولكن الشاب لم يعلق وانما بدا شديد الاهتمام بان يوضح لي من هو ، ولماذا هو موجود في الشقة ، مع العلم انني لم اسأله عن اي شيء . وقال لي انه اخو رضا ، واضاف بانني لا بد ان اعرفه . ولما كان الشاب خائفا ، فقد قررت ان ازعم معرفتي برضا ، فاصطنعت هيئة المتذكر وقلت « رضا مين ؟» فأجاب « رضا انرواس » فقلت فورا « آه .. رضا .. » طبعا اعرفه ، ما هي اخباره ؟ فارتاحت اسارير الشاب وبدا اكثر ارتياحا لمعرفتي بأخيه . وكذلك احسست انا ، واستطرد الشاب فيما نحن نمشي باتجاه الغرفة التي تبحث فيها سيمون « رضا صاحب هذه الشقة كما تعلم ، ولكن بسبب الحرب والقذائف .. » وقال اشياء ومعلومات اخرى عن خسائر الاسرة عموما لا اتذكرها بالضبط . وسألت سيمون اذا كانت قد وجدت القط فهزت رأسها بقلق وقالت « مستحيل ، كان هنا في الصباح » ونظرت بشك الى الشاب الذي ارتبك فخطرت ببالي فكرة غريبة وهي ان يكون الشاب قد اكل القط .. وكأنما احس الشاب باتهاماتنا الغامضة فأخذ يدافع عن نفسه ونفى ان يكون قد رأى اي قط على الاطلاق في هذه الشقة التي لم يغادرها منذ الساعة الثانية عشرة ظهرا .. وهنا استدار مقترحا ان نبحث في غرف اخرى في الشقة الواسعة ، فلاحظت تحت الدشداشة شبه الشفافة رقم ٧ مكتوبا بالانجليزية على ما يفترض انه فانلته الداخلية ، فشعرت بالشفقة على الشاب وقررت الا احرجه بمزيد من الاسئلة عن القط مع تأكدي التام بانه ببساطة قد فتح الباب وطرد القط خارجا عندما عاد لتفقد شقة اخيه .

***

كنت قد رأيتها في احد مكاتب الثورة ، ولما لم يكن لديّ ما افعله فقد فكرت باقامة علاقة معها ، فملت على صديقي الذي كان يتحدث اليها وسألته عنها ، وعلى الفور اظهر روحه الرياضية وسألها بصوت عال بالفرنسية :

— الا تعرفين يوسف ؟

فحولت نظراتها اليّ ورمقتني بنظرة ودية ولكنها لا تدل على شيء فهززت رأسي بهدوء وأنا ابتسم ، ولكن كان واضحا انها لم تكن متحمسة لمعرفتي اكثر من ذلك .

ولسبب لا ازال اجهله لاحظت ان صديقي يدفعنا بطريقة ما نحو بعضنا البعض ، فاقترح ان يكون الحديث بالانجليزية التي اجيدها ولا يجيدها اي منهما الا قليلا. بدت متعاونة واخذت تتحدث بالانجليزية وهي تبحث عن كلماتها — وكان ثمة ما يشغل بالها ، فهي تريد العودة الى جنيف وتتساءل اذا كان من الممكن ان تعود عن طريق بيروت ، فقلت لها :

— طبعا .. تستطيعين .. ولماذا لا تستطيعين .. هل ثمة ..؟

فاجابت : — بالطبع .. ليست هذه هي المشكلة ولكن المشكلة انني عندما جئت من جنيف جئت الى مطار دمشق لان مطار بيروت كان مغلقا في ذلك الوقت .. وانا احاول ان اجد شركة طيران تقبل ان تأخذني من هنا ..

فهرشت رأسي وكذلك فعل صديقي امام هذه المعضلة .. واقترحت عليها ان تسأل طيران الشرق الاوسط .. فقالت بيأس :

— يا الهي .. هذا ما فعلته قبل اي شيء آخر ، ولكنهم قالوا : مستحيل .

قلت :

— اذن في هذه الحالة ، لماذا لا تتصلين بشركة الخطوط السويسرية ، فلربما ..

قالت : — هذا هو السؤال : هل هذه الشركة تعمل أم لا ؟ انني لم استطع التوصل الى الاجابة عن هذا السؤال رغم انني اسأل منذ ثلاثة ايام .

« لقد حانت الفرصة » قلت في نفسي — فنهضت عن الكرسي واقترحت ان نخابر استعلامات المطار فانهم بالتأكيد يعرفون .. واخذت بالتوجه الى غرفة اخرى في المكتب حيث يوجد التلفون ، فنهضت وقد دب فيها الامل ، وهنا نهض صديقي وقال ان عليه ان يذهب ، والى اللقاء ، وابتسم لي ابتسامة مشجعة فيما هو يغادر .

بدأت احاول الوصول الى جواب فيما كانت تجلس امامي وهي تدخن بكثافة ، وبعد بضعة محاولات اكد لي موظف الاستعلامات ، وكان لطيفا ، أن مكتب الخطوط السويسرية لم يفتح بعد لان بضعة قذائف قد سقطت عليه وانهم الان يرممونه ويجهزونه للعمل قريبا ، واقترح ان اتصل برقم آخر املاه عليّ فربما يعرفون شيئا عن الموضوع ، فأخبرتها بذلك وهي تقدم لي سيجارة ،وحاولت الاتصال فرن الجرس ولكن لم يجب احد ، ونظرت الى ساعتي وقلت لها بأن لا احد في المكتب ، وربما تحاولين بعد الظهر واخذت انظر اليها بهدوء . دخنّا سيجارتين من علبتها ولاحظت انها قد التقطت ما تعتقد انه احدى عاداتنا القومية بتقديم السجاير ، ولكنها التقطتها بطريقة فجة تبعث على الابتسام ، فانني اعتقد اننا اصبحنا نتحفظ بعض الشيء في تقديم السجاير للاخرين .. بالنسبة لها ، اظن انها كانت تريد ان تظهر نوعا من الانتماء لنا بهذه الطريقة .. سيمون المضحكة !

قلت لها فجأة وانا انظر الى ساعتي « هل أكلت ؟» فهزت رأسها بالنفي ، فاقترحت ان نذهب لنأكل وقلت لها « ما رأيك في الذهاب الى الروشة ؟» فاقترحت أن نذهب الى الاسواق التجارية لتلتقط بعض الصور للدمار، فقلت لها اتركينا من الدمار الان ، ثم انني اريد ان ارى البحر فقد مضى زمن طويل منذ ان رأيته لاخر مرة ، فوافقت وتناولت محفظتها وكاميرتها وخرجنا من المكتب .

وعندما اصبحنا في الشارع اقترحت ان نأخذ تاكسي ، ولكنها احتجت واقترحت أن نأخذ «السرفيس» فاعجبتني الفكرة واحساسها بالتضامن المادي مع مناضل يفترض انه لا يملك كثيرا من النقود ، فوافقت . ولكني قلت لها بان علينا ان نمشي عشر دقائق على الاقل قبل الوصول الى اقرب نقطة سرفيس .

وأضفت بانني راغب في المشي وانني افترض انك ايضا تستطيعين المشي لانك من سويسرا حيث هواية الناس الاولى هي التزلج والمشي .. فابتسمت بتعب وطلبت مني الا اعاملها على هذا الاساس حيث انها تفضل ان تنتمي للبشرية كلها ، واضافت بصوت منخفض كأنما تحدث نفسها « لا اعتقد انني احب بلدي فلا شيء يحدث هناك » .

كنا نمشي تحت شمس شتائية دافئة .. كانت خطواتنا متمهلة ، الا اننا كنا نلهث — كنت ابذل مجهودا لكي احتفظ بلهجة لا تكشف انفعالي ، واما هي، فكانت اكثر تلقائية وكانت تتحدث من خلال لهاث مسموع .

ولقد فقدت احساسي بالطريق وهي تحدثني عن الاسرة اليهودية التي كانت تجاورهم عندما كانت طفلة، وعن النزعة الانسانية للسيدة اليهودية التي كانت تخبرها بانها تفكر اساسا في الاطفال اليهود والاطفال الفلسطينيين ، وانه من اجلهم يجب ان يعمل الكبار شيئا. فلزمت الصمت مقررا الا ابحث في هذه القضايا الشائكة التي ارمضت روحي ، وكدت اقول لها ان تكف عن هذا الحديث ، ولكني بدلا من ذلك اخذت انظر الى السماء وقلت شيئا عن البحر . واما هي فلم تسمع ملاحظاتي حول الطقس والبحر ، وقالت مكملة حديثها « انني اعتقد ان اسرتي قد تكون يهودية ، فاسم عائلتي هو اسم يهودي، غير انني لا اعرف الكثير عن هذه المسألة فوالداي مسيحيان .. قلت لها سيان عندي ان كانت يهودية او سكناجية او ..

فاستفسرت بفضول عن كلمة سكناجي ، فقلت ربما يكون تحويرا لكلمة « اشكناز » او قد يكون اسما لطائفة يهودية غربية قديمة ـ فسألت بحماس اذا كانوا هؤلاء الذين يطلقون جدائلهم فقلت لها : بالضبط ، وهم ايضا الذين يدهنون هذه الجدائل بالشحم فازداد حماسها وقالت « لقد رأيتهم ذات مرة عندما كنت في اسرائيل ».

اخترقت الكلمة اذني فتوقفت عن المشي بحركة لا ارادية وقلت لها ببطء وانا احس انني آخذ في تعمقي دور رجل امن ماهر :

ـ هل قلت انك كنت في اسرائيل ..

قالت بعفوية دون ان تلاحظ لهجة رجل الامن في : نعم في عام ٧٤ ، بعد الحرب ذهبت كصحفية لارى ماذا حدث لهم هناك .

فسألتها : وكيف وجدتهم ؟

قالت : كانوا لطيفين معي ولكن الاسعار لا تطاق ، انني استغرب كيف بامكانهم ان يعيشوا مع هذه الاسعار الخيالية ..

وهنا كنا قد وصلنا الى احد الحواجز العسكرية. ورغم ان هذه الحواجز لا تعترض الا السيارات فقد رمقنا العسكري المكلف واشار برشاشه ان نقترب وطلب هويتي فاخرجت له هويتي الحركية فتفحصها مليا وهو ينظر اليّ والى سيمون التي اخذت تبحث عن اوراقها . حدق العسكري طويلا في الهوية للمرة الثانية وقربها من انفي وهو يسأل : ما هذه الكلمة ؟ قلت انها اسمي فقال لا ، الكلمة المقابلة للمهنة ، فقلت : مناضل ـ فخفض الهوية ورشاشه معا وهز رأسه بعمق شديد وعلت ثغره ابتسامة ساخرة وعلق فيما هو يعيد الى الهوية « ها .. كلكم مناضلون ! » ونقل نظراته بيني وبين سيمون فلم اجب بكلمة وامسكت بيدها ومشينا دون ان ننظر الى الوراء .

***

لا ادري كيف يمكن ان تسير الامور بيننا بغياب جان ـ بيير فيليبو والذي ظهر منذ اللحظة الاولى لجلوسنا في ذلك المطعم المطل على البحر . فكأنما كان قدر ان يكون جان ـ بيير ثالثنا طيلة الوقت اذ غادر تماما في نفس اللحظة التي غادرت فيها سيمون ، ولكن على طائرة اخرى الى باريس ..

ولقد احسست ومنذ اللحظة الاولى انني لن احب هذا الانسان في اي يوم من الايام ، فهناك اناس لا تستطيع ان تحبهم مهما بذلت من جهد ، ومن المؤكد ان جان ـ بيير كان واحدا من هؤلاء بالنسبة اليّ ..

ولكن ـ وهنا المفارقة الموجعة ـ كان السيد جان من احب الناس الى قلب سيمون ـ بل كان من هذه القلة النادرة التي تستطيع ان تجعل سيمون تطلق تلك الضحكة الشهية الفضائحية والتي كثيرا ما سببت لي الحرج ونحن نمشي في الشارع .

ومن المؤكد ان هذا الحب لم يكن بسبب انه الصحفي الاجنبي الوحيد الموجود في بيروت في تلك الايام الصعبة، فقد كان هناك العشرات من الصحفيين والجواسيس وما اشبه ذلك من الاجانب ..

انني اعترف ان تعليقاته ونكاته كانت بارعة ، وكنت اجدها كذلك حتى وهي مترجمة الى انجليزية ركيكة . كان شخصا لطيفا وكل شيء . ولكن كان ثمة شيء ينفرني منه ولم يكن للتنافس على سيمون دخل بهذا ، اذ كنت اعرف ان المسألة محسومة لصالحي بشكل نهائي ـ ولكن سيمون كانت توده كثيرا وتسأل عنه ، بل انها بعد ثلاثة ايام من اقامتها معي طلبت مني صراحة ان يقيم معنا في شقتي ، لان نقوده قد نفدت ولا يعرف اين يبيت .. فاستفسرت كيف يمكن ان يكون المرء صحفيا وان تنفد نقوده فقالت بأنه يعمل في الصحافة اليسارية في فرنسا ولذلك فان دخله محدود .. واخذت تتحدث عنه بلهجة جاوزت لهجة الصديقة او حتى زميلة المهنة الى لهجة الام الرؤوم . لقد احسست بالتأثر وانا استمع الى هذه المرأة الصغيرة التي لما تكمل عامها الثاني والعشرين تتحدث بهذه اللهجة الحنونة المشفقة عن رجل عتليت لا يقل عمره عن خمسة وثلاثين عاما ـ الامر الذي جعلني انتقل الى نقيض مشاعري ، فابالغ في ترحيبي به واعرض عليها على الفور ان نتحرك ومنذ اللحظة للبحث عنه . ولكنها لم تبد متحمسة للفكرة واشاحت بيدها وهي تقول :

ـ ليس الى هذا الحد .. سنراه غدا ،

وجلست على ركبتي وهي تغمرني بقبلاتها القلبية.

قلت انني لم احبه عندما رأيته للمرة الاولى في اللحظة التي اخترنا فيها طاولة خارجية في ذلك المطعم. حياها من بعيد وهو يتلفع بكوفية غطت رأسه واذنيه ثم جلس على طاولة تبعد بضعة امتار وشرع يأكل . ثم رفع رأسه وازاح الكوفية قليلا وسألها سؤالا بالفرنسية فاجابته . وعاد الى صحنه ورفع رأسه مجددا وسأل للمرة الثانية فأجابته .. واستمر الوضع هكذا بعض الوقت وهنا احسست انه يمتلك مقصا طويلا لا مرئيا يستطيع به ان يقطع حبل حديثنا في اية لحظة .. ولدى آخر سؤال وجهه وهو يمضغ لاحظت انه يضع نظارات من النوع الدائري الصغير وانه اصلع بعض الشيء، فكرهت نظارتيه وصلعه المبكر ، وكذلك كرهت الكوفية التي يتلفع بها وكدت ان اهتف « الى الجحيم انت وكوفيتك ونظارتاك الدائريتان .. » ولكني لزمت الصمت ، واخذت جرعة هائلة من النبيذ وانا احس ان بطني قد اخذ ينتفخ. نظرت الى سيمون وتوقعت انها ربما تكون محرجة بعض الشيء ـ لست متأكدا ـ ذلك انها ظلت تنقل نظراتها

العادية بيني وبينه وهي تدير رأسها نصف دورة كاملة على الاقل بين حين واخر - واخيرا اتت اللحظة التي اصبح فيها الوضع سخيفا فتكفل العزيز جان - بيير بوضع حد لذلك لا بانهماكه في صحنه وانما بقدومه الى طاولتنا حاملا صحونه وزجاجاته ، وهنا ادركت ان ما توهمته من حقوق ادبية نحوها لم يكن الا في ذهني .. وابتدأت أهيىء نفسي لتقبل جان - بيير كحقيقة واقعة لا مفر منها .

***

في الايام الاولى بدت مشتتة وغير قادرة على التركيز على اي شيء ، وكانت تبدو كما لو انها تبحث عن شيء لن تجده ابدا. وقد اعتقدت لذلك انها من فصيلة الغجر من النساء او انها ليست الا من قطط الشارع .وقد صارحتها بكل ذلك وقلت لها بانني اجدها خطرة ،فسألت لماذا باهتمام ، فقلت لها بانني اعتقد انها من النوع الذي يترك الرجل فجأة ليهوي من أعلى الى ارض صلبة ؛ فانكرت ذلك بشدة ،ودهشت كيف انني افكربهذه الطريقة، وسألتني بالحاح لماذا أعتقد ذلك ، فقلت لها انه ليست لدي اسباب واضحة وانما هو احساس (كانت لدي اسباب ولكنني لم اجرؤ على تعدادها لانني اعتقدت انها نابعة من احساسي بحقوق لم يثبت حقي بعد في التلويح بها). اشعلت سيجارة جديدة وهزت رأسها بحزن وقالت انني مخطيء تماما . واضافت بانها تكره ان تتحدث عما يسمى بالماضي ، ولكنها مضطرة ان تروي لي قصتها مع الشاب الايراني الذي عاشت معه سنة على الاقل .. وحاولت ان تتذكر اسمه وفرقعت باصابعها عدة مرات وقالت وهي تضحك :

- تصور .. لقد نسيت اسمه !

فابتسمت بحكمة كأنما اقول لها :

- اترين ! هذا ما اعنيه بالضبط .. انك تعيشين سنة مع رجل ثم تنسين اسمه ..

- هميد ... (حميد) .. آه .. هميد .. هذا هو اسمه

وابتسمت بحنان كأنما استحضرته كاملا في مخيلتها ..

حميد .. لقد ظل طوال سنة يردد يوميا بانني لا اعني شيئا في حياته وانه بالنتيجة سيضع حدا لعلاقتنا .. هل تسمعني ؟ كان يقول هذا في الوقت الذي كان ينام فيه معي ثلاثمرات يوميا .. وذات يوم سافر في اجازة بعد ان ودعني الوداع الاخير كما سماه . فأحسست انني اريد ان ابكي ، ولكنني تمالكت فانا لا ابكي ابدا (بكت بعد يومين).وشددت على يده وقبلته في عينيه السوداوين الجميلتين وعندما تركني كان اول شيء فعلته هو انني قفزت على اول رجل صادفني .

وسألتني :

- أليس هذا امرا طبيعيا ؟

فاجبت بأنه امر طبيعي في هذه الحالة ، ولكنني اضفت بان هذه القصة لا تعني اي شيء .

فقالت : انتظر ، لم تنته القصة بعد، واشعلت سيجارة جديدة ، فبعد ان عاد حميد من اجازته كان اول شيء فعله هو انه جاء الى غرفتي حتى دون تلفون فقلت له بان لدي الان رجلا اخر . فقال لي : اتركيه ، فانا احبك ، وقد جثا على ركبتيه وضم يديه وهو يضرع الي كما في الافلام القديمة ..

ونظرت الي كما لو انها تريد ان ترى تأثير قصتها علي وهمهمت : « اترى ؟ انني لست من النساء اللواتي يتركن الرجل هكذا » . واشارت بيدها .

***

كان ريّس هو الآخر يبدو ضائعا فاقد الثقة بنفسه، وكان لا يزال يمشي تلك المشية المترنحة الخائفة التي توحي انه يتوقع ضربة ما في اية لحظة ، وكان ذلك نتيجة تشرده قبل ان تعثر عليه سيمون مرة اخرى صباح ليلة رجل الدشداشة . ولكن حنانها وحبها الثابت له كان يبعث في نفسه الثقة شيئا فشيئا . كان لديها الصبر لتقبله وتدلله في اية لحظة ولو كانت احدى لحظاتنا الخاصة ، وكانت تقبله في فمه المتسخ وفي فروته التي بات امرا معروفا انها تضم بعض الحشرات . وفي اليومين الاولين كان يطيب له ان يقضي حاجته في احد زوايا غرفتنا ، فكانت تنهض من الدفء وتزيل اثاره بالماء والصابون ثم تضع قطرتين من الكاز كما نصحتها ، ولكنها هنا كانت لا تتردد في عقابه بحزم فتصرخ فيه بلهجة غاضبة فيحس بهذا ويهرب مهرولا الى المطبخ واذ تراه مهرولا كان غضبها يتبخر دفعة واحدة فتقول « انظر اليه كم هو لطيف وهو يهرب » فتناديه بحنان مجددا فيعود اللعين وتحتضنه بذات الشغف والحنان الاومومي- وعندما تفعل ذلك ، وحيثما يحس بالدفء ، في السابق والان ، يستدير على نفسه ويبدأ برضاعة واحد من اثدائه (للقط ايضا اثداء وليس للقطات فقط) بصوت مسموع. وعندما لاحظت هذا للمرة الاولى احسست بالتقزز عندما شاهدت نتوءا احمر في بطنه معتقدا انه نوع جديد من المرض ، ولكن سيمون شرحت لي ان هذا ليس الا احد اثدائه وانه بهذا العمل لا يقوم الا بعملية تعويض سيكولوجية ، وان ريّس عندما كان صغيرا جدا لم يرضع من امه المدة الكافية لسبب او لآخر ، وهو لهذا يقوم الان بهذا التعويض تماما كالطفل الذي يمص ابهامه بعد الفطام ..

جميل . ولكن جان ـ بيير الذي كان يستمع ، وجد في كل هذا امرا مبتذلا ومبالغا فيه ، واكد ان هناك ملايين من الاطفال الذين هم بحاجة الى الحنان اكثر من هذا القط ، وانتقل رأسا وسط اعتراضات سيمون الى هجوم كاسح ضد ما اسماه الولع الاوروبي الذليل بالحيوانات المنزلية ، وقال بلهجة حاسمة وارنبة انفه ترتجف :

ان هذا لا يعدو كونه نفاقا وعهرا بورجوازيا ..

وهنا فقدت سيمون اعصابها واخذت تتحدث بالفرنسية ناسية ان تعتذر لي كعادتها عندما تريد ان تعبر عن نفسها بدقة امام جان ـ بيير ..

وفقد جان اعصابه بدوره ، واما انا فقد بقيت اتفرج على هذه المشاحنة العنيفة بهدوء دون ان افهم شيئا الا كلمة « تل الزعتر » والتي اصبحت تتردد بمعدل مرة كل عشر ثوان على الاقل . واحمر وجه جان ـ بيير فوق انه احمر اصلا ، كما اثبتت سيمون انها شرسة في الدفاع عن ارائها وعن ريّس (وعني بالطبع لانني احبه ايضا) . واما انا فقد احسست ان لا مكان لي في هذا النقاش العائلي فتوجهت الى المطبخ حيث فتحت علبة سردين اعطيت ريّس نصفها واكلت نصفها الآخر .

***

كانت عيناها زرقاوين في الصباح وخضراوين في الظهيرة وزيتونيتين في المساء . وكانت لها اطول اهداب سوداء رايتها في حياتي ، وقد اعتقدت انهما اصطناعيتان وقلت لها ذلك ، وحتى تثبت العكس اخذت تشدهما بقوة فخشيت ان يحدث لها مكروه فامسكت بيدها وانا اقول : « او . كي انني مخطيء » . كان وجهها الاشقر مليئا بالنمش الذي تعودت عليه واصبحت اراه جذابا . كانت زهرة برية ولها شفتان دسمتان شهيتان ، وكنت ارى فيها ، وخاصة عندما تغمز بعينها اليسرى ، سحر اول خلية انثوية تعرف كيف تكون المرأة ، اما مشيتها فكانت مضحكة اذ كانت ساقاها النحيلتان تتحركان بدون توافق ، لدرجة انني اعتقدت انها ربما اصيبت بشلل الاطفال عندما كانت طفلة ، ولكن بعد سؤالها اتضح انها تمشي هكذا ..

كنت كثيرا ما احدّق في وجهها بتفحص عميق ، فتسألني بماذا افكر فكنت اقول لها بانها تذكرني بشخص ما اعرفه فتسأل من ؟ فأقول : رجل . واخيرا وبعد ايام لمعت في ذهني فكرة ، وهي ان لها ملامح من صديقي سميح القدسي فقلت لها ذلك فهتفت باستنكار

ـ ومن هو سميه الكدسي بحق الشيطان ؟

فرويت لها قصة هذا الصديق الذي عرفته في عمان قبل عشرين سنة على الاقل والذي سافر بعد التوجيهية الى تركيا للدراسة وتحصيل العلم ، ولكنه بدلا من ذلك نسي لماذا ذهب واخذ يطارد النساء التركيات ويرسل لوالده اخر كل سنة ان دراسته على ما يرام وظل على هذه الحال خمس سنوات ، ووالده معتقد انه سيتخرج بعد سنة على الاكثر ـ وحتى يغطي سميح موقفه ويمنع اخباره الحقيقية عن والده كان يستخدم تكتيكا ذكيا اذ كان يستخدم كل قادم من عمان الى تركيا لسبب او لاخر فيكرمه ويحتفي به بكل الوسائل حتى اذا ما حانت عودة هذا الزائر شد سميح على يده بقوة وهو يقول له « استر على ما ستر الله » .

وذات مرة لاحظت ان لها ابتسامة دسمة تشبه ابتسامة حسين فهمي الممثل المصري المعروف فقلت لها ذلك فاغتاظت وادارت ظهرها وهي تقول بصوت طفولي :

« انت لا تشبهني الا بالرجال » فشرحت لها انني لا اقصد ان اسيء الى مشاعرها وكل ما في الامر ان ابتسامتها تشبه بالفعل ابتسامة حسين فهمي . واقترحت عليها ان نذهب الى سينما ستراند في شارع الحمرا لتتأكد انني لا أمزح (كان يعرض له فيلم لحسن الحظ) فوافقت وذهبنا الى مدخل السينما حيث شاهدنا خمس صور يبدو فيها النجم المصري مبتسما تلك الابتسامة الدسمة في جميع الصور . ولما تأملت الصور بفضول اطلقت ضحكتها الفضائحية ولم تكتف بذلك بل رفستني ثم التصقت بي وهي تهمس « موتامور » وارادت ان تقبلني فمنعتها وانا انظر حولي قائلا « ليس هنا » .

***

لقد عبرنا بهدوء من الوحشة الى الالفة الى الاتحاد واصبحنا غير قادرين على النوم الا اذا رقدت عارية بين ذراعي حتى الصباح ..

وكانت تهمس لي بونجور صباحا ومساء وفي الليل ، وكانت عيناها تتوهجان بالضياء والعسل ..

فليباركها الله تلك المرأة الصغيرة .

لقد رحلت وتركت لي قطها وعلينا ان نتدبر امرنا معا في هذا الشتاء الطويل .

بيروت

عبد الرحمن أبو عوف

أزمة الفكر الفلسفي في مصر بين الترديد والتجديد

ليست الفلسفة بكل تعقد وغموض مصطلحاتها ونظرياتها المتضاربة بعيدة، في النهاية عن سلوك الانسان العادي . ذلك اننا جميعا فلاسفة سواء ادركنا ذلك ام لم ندركه . وهناك تحت سطح حياتنا الظاهري ،وفي مجال لايكون دائما واعيا ، توجد الفروض الخفية التي نعمل عادة على اساسها . ومن ناحية اخرى في مجال الاعتقاد الواعي ، توجد تلك الآراء والافكار التي يعيش الانسان بواسطتها .

والانسان المصري العربي يقف الآن في مأزق حضاري معقد ، فبرغم تراثه الفكري المجيد ، فلا جدال انه يتعرض وعلى الدوام وكما جاء اخيرا في مناقشات مؤتمر وزراء الثقافة العرب في اول اجتماع لهم في (الاردن) ، لموجة جديدة من الغزو الثقافي ، ناتجة بلا جدال عن التقدم الدائم للحضارة الاوروبية بشقيها الغربي والشرقي او الرأسمالي والاشتراكي ،وكلاهما وبرغم اختلاف النظام السياسي والاقتصادي ، يعتمدان على العقل والمنهج العلمي في السيطرة على قوانين الضرورة في الطبيعة والمجتمع .

فكيف كان رد الفعل عندنا ؟

اعتقد وبرغم ما يمكن ان نتفق فيه او نختلف .ان الفكر المصري العربي ظل ومنذ اليقظة الحضارية التي قادها رفاعة الطهطاوي ، ومحمد عبده ، ولطفي السيد ، واميل البستاني ، وطه حسين ، وميخائيل نعيمة ، واخرون ، ظل يعاني من الانقسام بين الموقف السلفي والتقدمي ، بين النقل والترجمة وبين التأصيل ، بين استيعاب المنجزات الحديثة في جوانب الحضارة الاوروبية وبين الاحتفاظ بمقومات الشخصية والنظرة العقلية المصرية العربية ، بالبحث عن جذور العقلانية في تراثنا .

وكمقدمة عامة سوف نواصل فحص وتحديد التيارات الفلسفية والفكرية التي سيطرت على اقسام الفلسفة في جامعاتنا ، وخاصة في جامعة القاهرة ، منذ الاربعينات وحتى الان ، تعمدنا اختيارها ، لان ابرز الممثلين لها تخطوا مراحل الثقافة الانتقائية ، وكانوا محترفين للفلسفة كعلم مستقل ، اعطوا له كل عمرهم وجهدهم ،ثم انهم في النهاية قد حاولوا الاسهام في البحث عن طريق جديد للعقل المصري العربي ، وسط دوامة التيارات الفلسفية التي ينفي كل منها صلاحيات الاخر في العالم الاوروبي .

فالى اي مدى كان جهدهم وعطاؤهم على مستوى الاجابة للقضايا الفكرية المطروحة في الفكر المصري العربي المعاصر آخذين في الاعتبار اثناء العرض والنقد سياق التطور السياسي للحركة الوطنية والاجتماعية في مصر عقب الحرب العالمية الثانية ، والتي تشكل في اعتقادنا منحنى تاريخيا وحضاريا في تطورنا السياسي حتى الان ، بجانب مراقبة جدل العملية الاجتماعية ونمو البرجوازية المصرية عقب ثورة ١٩١٩ وانتهاء طموحها بمعاهدة ١٩٣٦ ، ثم ما دخل على مكونات المجتمع المصري من تبدل في علاقات ووعي الطبقات المسحوقة كالعمال والفلاحين في مواجهة البرجوازية العقارية التجارية الشبه اقطاعية ، وتناقض الجميع مع الاستعمار الانجليزي والذي شكل التناقض الرئيسي لحركة الصراع الوطني والاجتماعي .

وبرغم صعوبة توصيف هذه التيارات ، وتتبع نشأتها ومصادرها ومكوناتها ثم اخيرا مدى تأثيرها في صناعة مزاج ورؤية الشخصية المصرية ، تجاه احداث حياتها ومصيرها ، برغم كل ذلك فان تقصي مجالات هذه التيارات ، ربما يعطينا بداية الخيط كما يقولون .

اولا (فلسفة العقل المعتدل) : وصاحبها ــ يوسف كرم ــ (١٨٨٦ ــ ١٩٥٩) ، حيث عرض في كتبه (العقل

والوجود) و (الطبيعة ومابعد الطبيعة) وجهـة نظره ، وتتلخص في معارضة المذهب التجريبي ، والمذهب التصوري ، فليس ادراك الوجود منحصرا في الحس فقط او العقل فقط ، بل هو يوفق بين الاداتين لكي يتخطى تناقض النظرة الواحدية ومن ثم فهو (علقي) يثبت وجود (العقل) وصدق احكامه وهو ايضا (واقعي) يثبت وجود (العالم الخارجي) .

وتلك في النهاية وجهة نظر توفيقية ، ظنت ان (التجريبية) معيار لفهم العالم الخارجي ، والعقل الصوري (المثالي)صادق في احكامه ، وفاتها ان التجريبية بحصرها (المفهوم) او (المعنى) في مقابلـه (الحسي الجزئي) تشوه ادراك الواقع في شموله ، كذلك تتخلف هذه النظرة عن تحليل « كانت » (العقل) وشروط قدراته لفهم الواقع ليس في ذاته ، او جوهره.

ولقد طبق (يوسف كرم) هذا المفهوم التوفيقي في محاولته التأريخ للفلسفة في عصورها القديمة والوسيطة والحديثة . فبرغم جهده وقدرانه في انجاز هذا العمل في ثقافتنا المعاصرةجاء تأريخه تجميعا متراكما يخلو من المنهج التاريخي او النقدي او الجدلي الذي اقامه(هيجل) واصبح اساسيا في اية محاولة لرصد تاريخ الفلسفة .

لقد كانت فلسفة (يوسف كرم)انعكاسا شاحبا لحيرة الطبقة المتوسطة المصرية في مساوماتها مع الاستعمار لكي تتبنى وجهة مستقلة لشخصيتها في الاقتصاد والسياسة ، غير انها ظلت متهاونة تنمو في ذيل شروط الاحتكارات العالمية ومن ثم كان جانب كبير من فكرها انتقائيا قلقا بين فهم الواقع وفهم الذات .

ثانيا الجوانية ــ الدكتور عثمان امين

وهي تهتم بالروح رغم بنيتها العقلانية المثالية ، وتحاول التفرقة بين ما هو (ظاهر) وما هو (باطن)، وعنده ان الظاهر (عرضي) والباطن (جوهر) وبعبارة اخرى فثمة فرق عنده بين النظر الناس والموضوعات بعيون الجسم فيشاهدها من الخارج ، وكأنه يتفرج عليها، وبين موقعه حين ينظر اليها بعيون الروح ، فيشارك فيها ويعاينها من الداخل .

ولم يستطع د. عثمان امين ــ في دفاعه عن (الجوانية) ان يقدم الادلة المنطقية التي تجعل (للجوانية) تماسك النظام الفلسفي ونسقه ، فأعترف اكثر من مرة.. وبالحاح (انه ليس يوجد للجوانية من حيث هي فلسفة مفتوحة تعريف او (حد) بالمعنى المنطقي الدقيق للحد او التعريف : الجوانية على الطريق دائما ولا تعرف الوقوف ولا تريد الانغلاق ، وهي محاولة للتعبير عن ايمانها العميق بضرورة الميتافيزيقا ، وكرامة المعرفة ، وسلطان الاخلاق) .

ويغنينا هذا الاعتراف وغيره عن تفنيد دعاوي (الجوانية) كقناع جديد للمثالية ، واغنية معادة لكل تقديم (للذات) على (الموضوع) ، والفكر على الوجود والانسان على الاشياء ، والرؤية على المعايشة ، تلك المسائل الجوهرية التي حسمها العلم الوضعي لصالح كل ما يناقض دعاوي المثاليين الكبار منذ (افلاطون) وحتى (هيجل) .

وبرغم بداية (عثمان امين) عام ١٩٤٢ كأكبر المدافعين عن المنهج العقلي لديكارت ، حيث يظل كتابه عنه مرجعا اساسيا حتى الان ، يستهدف الوضوح والدقة، الا انه انتهى حدسيا ، متصوفا ، يحاول احياء الميتافيزيقا، والاخلاق الحالمة ، بكمال غير متحقق ، ثم هو يختار اقبح وجوه المثالية ، اقصد المثالية غير التحليلية ، التي تفشل في تحليل العلاقة الغامضة بين الظاهر والباطن ، بين (الشيء) و (المثال) وانما هي تبريرية ، تأتي بمسلمات دينية لتقرها بواسطة الفلسفة .

لذلك نجده يتراجع لحصن الامام الغزالي، وكل الفرق الصوفية التي مجدت الادراك بالقلب على حساب العقل هادما تراث العقلانية المجيد في الفكر العربي عند ابن رشد وابن سينا والكندي ، والبيروني ..الخ .

بل هو يتناقض مع نفسه ويتراجع عن تحليلاته العقلية لمحمد عبده في كتابه (محمد عبده رائد الفكر المصري الحديث) ليغرقنا في نظرة سلفية تمجد كل ما هو غيبي في عملية ادراك الواقع والحياة الاجتماعية

وبرغم ضعف صدى دعوة الجوانية في فكرنا المعاصر الا انها تعكس لحد ما فكريات اقسام متخلفة من الطبقة المتوسطة المصرية التي تستتر وراء الاخلاق والمثل والتصوف في محاولة يائسة تخفي وراءها نفعيتها ومحافظتها على اوضاعها الاقتصادية المعادية للجماهير العاملة المحتاجة دائما لفكر واع علمي يعطيها امكانية انتزاع حقوقها .

ثالثا : الوجودية ــ او الدعوة لحرية الفرد ، عند عبد الرحمن بدوي

برغم خفوت صوت (عبدالرحمن بدوي) كأبرز المفكرين المصريين في تبني اكثر مدارس الوجودية تشددا في تمجيد (الانا) (المطلق) الفارق في الذاتية والتشاؤم، والمعادي تفهم الانسان في سياق حركة التاريخ وفي علاقاته بالاخرين، برغم ذلك فما زال هو وبكل مجهوداته الاكاديمية من دراسات وترجمات وتحقيق للتراث العربي من وجهة النظر الوجودية ما زال هو الوحيد الذي حاول ان يقدم عملا فكريا متكاملا من وجهة نظره ، ايا كان نصيبها من الصواب او الخطأ ، اثرت بلا جدال في اجيال متعاقبة خاصة في الاربعينات والخمسينات ، مع التحفظ على

غياب وافلاس تلامذته وهزال ما قدموه بعده من هوامش شاحبة غارقة في اللاعقلانية ، لم تحدث اثرا في حركتنا الفكرية .

فاذا كانت التجريبية العلمية دعوة الى الفهم العقلي الواضح ، فدعوة (الوجودية) هنا تتعلق بالارادة الحرة التي لا تكتفي بمجرد الفهم العقلي ، بل تضيف اليه الفاعلية المنتجه . ويلخص (عبدالرحمن بدوي) وجهة نظره في كتابه (الزمان الوجودي) حيث يقسم الوجود نوعين – فيزيائي وذاتي ، والثاني وجود الذات المفردة والاول كل ما عدا الذات ، سواء كان (ذاتا) واعية ام كان (اشياء) . اما (الوجود الذاتي) فوجود مستقل بنفسه في عزلة تامة من حيث الطبيعة عن كل وجود للغير ولا سبيل الى التفاهم الحق بين ذات وذات اذ كل منهما عالم قائم وحده ، واما وجود الغير فلا نسبة له الى (الذات) الا من حيث (العقل) ، والفعل ضرورة للذات لان الفعل تحقيق لامكانياتها ، فلكي تحقق نفسها لا بد لها اذن ان تفعل ، والفعل لا بد ان يتم في وجود الغير وبواسطته ، ولذا كان عليها ان تتصل بالغير .

ولقد ظهر كتاب (الزمان الوجودي) عام ١٩٤٤ كتعبير عن حيرة اقسام من المثقفين المصريين امام تعقد مرحلة النضال الوطني التي ظل حزب الوفد قائدا لها رغم الانقلابات الرجعية التي فرضها القصر لحكومات من احزاب الاقلية ، كأنماط مسخ للنظم الفاشية والنازية التي اجتاحت اوروبا واشعلت نيران الحرب الامبريالية العالمية الثانية .

ولقد بادر (عبدالرحمن بدوي) بنشاط محموم بتقديم كل التلخيصات والشروح والترجمات والمؤلفات لفلاسفة النظم الشمولية الفاشية والنازية في المانيا بالذات . غير انه في حماسه لعرض افكارهم لم يتبين ان افكارا من هذا النوع مسئولة عن السديم الفظيع الذي ساد الفلسفة الاوروبية في ذلك الوقت حول (مفهوم الحرية) وما يزيد الطين بلة في هذا السديم ، ان(عبد الرحمن بدوي) كان صدى لاوساط عديدة من المثقفين البرجوازيين في اوروبا خلال الاربعينات ، لم يتفهموا المشكلة الاجتماعية لعصرهم تحت مظهرها (العيني) : صراع اشكال الديمقراطية الجديدة ضد اشكالها القديمة ، التي تخدم الرأسمالية والتي هي تابعة لها ، والتي تؤدي ، بتبنيها تصورا متطرفا مجردا وذاتيا للحرية ، الى العدمية والصوفية واخيرا ولادة الاساطير اللاهوتية .

ولم يدرك (عبدالرحمن بدوي) رغم طاقة جهده وموسوعيته ان الحاد (هيدجر) و (سارتر) لا يقل دينية عن الحاد نيتشه ، رغم انه مدين بأسسه (لكيركفارد)، كذلك لم يدرك ان وضع (ماركس) و(كيركفارد) على خطين متوازيين قد اصبح طريقة شائعة للغاية لا يمكن الدفاع عنها فلسفيا ، لكنها في الوقت نفسه مبررة بخلفية واقعية جدا هي (افلاس المثالية الموضوعية) . ان ارثها هو موضوع النقاش الدائم بين اليسار ،اي الجدل المادي ، واليمين ممثلا بالوجودية .

لذلك فقد سادت اعمال (عبدالرحمن بدوي) نغمة صوفية عدمية .. تتغزل في الموت والفناء في اللانهاية، كما جاء في كتابه (الموت والعبقرية) ، ورواياته العقيمة .

ومن الغريب ان فلسفة تعكس ازمة النظام الامبريالي في اغتياله حرية الاخرين تحت قناع حرية (الانا المطلقة) النازية ، يحاول مفكر مصري يعيش في مصر في الاربعينات وفي اتون التهاب المعركة الوطنية ضد الاحتلال – من الغريب ان نجده ينقل هذا التيار الفلسفي ، ويبرر به بعض الحركات الفاشية والنازية التي سيطرت على قطاعات من الشباب المصري خلال الحرب العالمية الثانية .

الا ان (عبدالرحمن بدوي) قد دفع غاليا ثمن اعتناقه هذه الفكريات الوجودية ببعدها المتطرف في العدمية ، وضرب من نظم سياسية كان هو مؤسس افكارها .

رابعا : اتجاه الوضعية المنطقية ، وابرز المدافعين عنه الدكتور زكي نجيب محمود :

ولقد حدد اوجست كونت مفهوما اوليا للوضعية المنطقية ، بانها المذهب الذي يقرر ان المعرفة الحقة ،هي معرفة الوقائع ، وان اليقين قائم في العلوم التجريبية وان الخطأ ينشأ مما هو (قبلي) وان الحق هو ثمرة (التجربة) .ثم مرت (الوضعية المنطقية) بثلاث مراحل، الاولى ، وابرزها كونت ، ولافييت ، وستيوارت مل ، وسبنسر ، وانصب اهتمامهم على علم الاجتماع بقصد اثبات الطبيعة الابدية للمجتمع الذي كانوا يعيشون فيه (الراسمالية) . هذا من ناحية ومن ناحية اخرى عالجت نظرية المعرفة والمنطق على اساس من الظواهرية والتجريبية المتطرفة . اما المرحلة الثانية فهي مرحلة (النقدية التجريبية) عند (ماخ) وقد رفضت حتى الاعتراف الشكلي بالاشياء الموجودة موضوعيا ، الامر الذي سبق ان اعترفت به الوضعية الاولى ، فالمعرفة عندها ذاتية محضة ،اما (الوضعية الثالثة) فترتبط بما يعرف – بحلقة فيينا – عند نيوراث، وكارناب ، وكذلك جمعية برلين الفلسفية العلمية (ريشنباخ) ، و (كراوس) ، وتجمع بين عدة اتجاهات ، كالذرية المنطقية والسيمانطقيا ، ومركز اهتمام هذه الوضعية هو المشاكل الفلسفية للغة والمنطق الرمزي ، وقد رفضت النزعة السيكولوجية واتخذت سبيل التوفيق بين منطق العلوم والرياضيات .

وهذا الاتجاه الثالث في (الوضعية المنطقية)، هو ما يبشر به عندنا د . زكي نجيب محمود ،وفي كل من كتابيه (خرافة الميتافيزيقا) و (نحو فلسفة علمية)يدعو الى ان تتشبه الفلسفة بالعلم ، لا بالمعنى الذي يجعل الفلاسفة يشاركون العلماء في موضوعاتهم بل ان تلتزم الفلسفة في استخدام الالفاظ والعبارات ، وموضوع البحث الفلسفي الذي يتناوله بدقة لا يكون موضوعا مما تبحث فيه العلوم ، بل يكون هو التشكيلات الرمزية ـ من عبارات لغوية ورموز رياضية وغيرها ، التييستخدمها العلماء في صياغة علومهم ، فيحللونها تحليلا يخرج مضمراتها من الكمون الى العلن الصريح . وها هنا يظهر في وضوح ان كانت منطوية على تناقض او على عناصر من شأنها ان تجعل العبارة بغير معنى علمي ، ام كانت سليمة البنية المنطقية فيكون العلم كله سائرا على هدى . وبهذا تصبح الفلسفة هي التحليل المنطقي بدل ان يكون التحليل المنطقي جزءا من الفلسفة .

وليس تعسفا منا لو قلنا ان تضييق مجال الفكر الفلسفي بالاقتصار على تحليل لغة العلماء واهمالالبعد التاريخي للفكر البشري ثم وما هو اخطر (تطبيق مبدأ الامتناع عن تجاوز ما هو معطى) بحيث يترتب على هذا الامتناع (ان يترك الواقع دون ان يمس) ـ ان كل ذلك تشويه لدور وتاريخ الفلسفة وعلى حد تعبير (فنجنشتين) ـ وهو من اقطاب هذا المذهب ـ ان الفلسفة (تترك كل شيء على ما هو عليه) وهذا هوالوجه القبيح الطبقي والمصلحي للوضعية المنطقية وكل فلسفة تجريبية ، رغم كل الاقنعة عن التزامها بأن الحد النهائي للمعرفة هو المعطي الحسي ، وتوضيح معنى العبارات التي لها مقابل حسي في العالم الخارجي ، الى اخر هذهالتبجحات التي توصلنا اخيرا الى ضياع الحقيقة الموضوعيةالشاملة، حيث يصبح المدرك الحسي الجزئي هو الحقيقة الوحيدة، وبهذا تماما يفقد العقل البشري فاعليته التأليفية والابتكارية ويستحيل الى مبضع بارد للتحليل والتشريح اللغوي العقيم وينعزل الفيلسوف عن حركة الواقعالمعاش ويتجنب المشاركة في قضايا مجتمعة الملحة ليفرق ويفرقنا معه في تبويبات شكلية محشوة بالعمليات المنطقية الرمزية المتعالية عن احتياجات الانسان الدائمة عبر كل مرحلة تاريخية لمزيد من الحرية والعدالة والتقدم ، خاصة في مجتمع كمجتمعنا تعرض ويتعرض الى قوى خارجية وداخلية تحاول عرقلة نموه وتقدمه سياسيا واجتماعيا وحضاريا .

ورغم رفض هذا الاتجاه الفلسفي احكام القيمة في الاخلاق والجمال واعتبارها احكاما غير موضوعية تستخدم عبارات غير محققة عينيا وليس لها مقابلحسي، رغم ذلك فقد ظل زكي نجيب محمود يعطي لنفسهالحق في اصدار احكام تأليفية من وجهة نظر ذاتية مفرقة في فرديتها ، ابرز ما فيها نظرته الثنائية التي تصنف كل ظاهرة في العالم والوجود الى وضع ونقيض لا علاقة بينهما الا التضاد المطلق على عكس النظرة الجدلية التركيبية ، وهو في فحصه للتراث العربي ومحاولته البحث عن طريق عربي ومعاصر يؤكد بيقينية مزعجة (ان الثنائية مبدأ راسخ في ضمائرنا العربية ، بين الخالق والمخلوق ، بين العلم والايمان ، بين المادة والروح ،بين المطلق والنسبي ، بين السماء والارض ، ان (الغرب هو صانع العلم) ، ونظرته استدلالية ومنطقية تحليلية ، و (الشرق ، نظرته حدسية) تنفذ خلال الظواهر البادية للحس الى الجوهر الباطني ، ويلتقي الطرفان في(الشرق الاوسط) طوال عصوره التاريخية حيث يتجاور الدين والعلم وتجتمع النظرة الروحية والنظرة العلمية ..

وبذلك ، وفي ظنه بهذا التلفيق بين النقيضين ، يتخطى كل المذاهب التي تأثر بها العقل المصري والعربي، وابرزها الوجودية والمادية الجدلية ، غير انه لا يدرك انه يقع في تناقض نظرة مشتتة ، وصفية ،تجزيئية، نفعية ، لم تستطع ولن تستطيع ان تبصر بتراثنا في حركته الصراعية داخل اطار واقعه الموضوعي الاجتماعي ومراحله التاريخية المختلفة .

وربما يكون هذا التحديد الاجمالي متعسفا ، غير انه بداية اولية ترصد وجود ظاهرة فكرية لها خطورتها في الفكر المصري ، وهي تبعية معظم هذه الاتجاهات لاصول الفكر العربي برغم محاولات التوفيق بين التراث العقلي العربي وبين هذه التيارات ، بجانب عزلتها عن طبيعة المراحل التاريخية والصراع الاجتماعي الذي تتابع بعنف في السنوات السابقة ، انها في معظم قضاياها الفكرية اقامت سدودا وهمية بين سياق حركة الواقع وتصوره في ابنية فكرية تقود حركته نحو التقدم .

فاذا تساءلنا في النهاية عن جوهر الازمة التي عانت منها هذه التيارات الفلسفية ، لوجدناها في صميم ازمة مكونات وتاريخ الطبقة المتوسطة المصرية ،التي كانت طوال هذه السنوات وما زالت تصبغ حركة المجتمع بمثلها وقيمها ، ولا ترى في حركته ابعد من مصالحها الاستغلالية لذلك كان اجماع معظم هذه الفلسفات التي عبرت عنها هو المحافظة والوسطية ، والاعتدال ، وتلك بلا جدال محنة تؤدي بفكرنا وثقافتنا الى طريق مسدود، تعمينا عن ادراك السبيل لمعرفتنا ، بذواتنا ،وتجاوزنا الخلاق لماضينا ، ومشاركتنا الفعالة في عصرنا .

القاهرة

عبد الخالق الركابي

تجليات القمر الاسود

جثتي قمر موحش
كلما اعتكر الغسق الدموي استدار على
حافة الليل اسود كالصمت ، فانتبهوا !..
وارسموا ، حين أسفر عن عري جرحي ، الصليب
اقرأوا سورة ما ، فبعد قليل سينتصف الليل :
في اي رمل ، ترى ، تغرسون الرؤوس ؟!
دمي اكتسح الارض وامتد حتى صميم التراب!
سينتصف الليل :
في اي مقبرة ستوارون جثتي المستباحة ؟!
لي جسد يسع الوطن العربي !!
سينتصف الليل :
ها أنذا !.. كلما ضاقت الارض والموت قايضكم
بدمي ، اكتملت جثتي قمرا عربيا تخطى مداراتكم
واستدار ، على كل بوّابة شهدت كل من
ولغوا في دمي ، شاهدا وشهيدا ــ
بعينيّ هاتين ابصرتهم
ــ صحوة الاحتضار المريرة لن تخدع المحتضر :
« رفّ جناح الموت بـ .. طيـ .. ئـ .. ا
فاحتقنت حلمة ثدي باللبن الممنوع ، تخطّى
أطفال فلسطين طفولتهم ، وتعلّم اصغرهم
كيف يكون الصبر !..
وطوى الشهداء خرائطنا الممهورة بالحبر الباهت ،
قالوا :
ــ للارض خرائط أخرى
ترسم بالدّم ! !
تساءلنا :
ــ كيف ؟!

أجابوا :
ــ تلّ الزعتر !! »
هادئا كالرصاصة في فوهة البندقية ، ممتلئا
مثل جرح قديم تكوّر فوق نثار
الشظية ، مغتسلا بدمي ، اترقبكم :
« لا أرى غير ظلي المديد ، وغير دم
يتشرّبه الرمل !! ... »
هاأنذا أتفقّد ابوابكم :
« يتناهى لسمعي صرير اسرّتكم
وهي تختضّ ...
تختضّ ....
تختضّ ....
تهدأ ــ
يخفق ، ما بين جنبي ، قلبي ،
اقول :
ــ ترى ، أطرق الآن ؟!
أطرق ؟ !
أطر ... ؟!
يشجّ انتظاري المرير غطيط حناجركم !! »
هادئا ...
كالرصاصة ..
أولد من ...
موتي ...
المستحيل ! !

بغداد

يحيى رباح

عودة زرقاء اليمامة

– ١ –

توسط البدر صفحة السماء في ليلة من ليالي الصيف، وكان الضياء الفضي الناعم ينهمر فوق بيوت اليمامة ، ومضارب خيامها ، واشجار بساتينها المتشابكة ، فتبدو في الصحراء مثل جزيرة خرافية نادرة الجمال ، وسط بحر واسع من الوهم .

وفي تلك الليلة كان مسيلمة الكذاب غارقا في لحم سجاح الكاذبة ، بعد ان اولم وليمة كبيرة ذبح فيها رؤوس ضان كثيرة العدد..واهرق فيها جرارا من الخمر القوية، وتحدث فيها شعراء اليمامة عن القوة والمنعة والسؤدد، واكلت الكلاب حتى شبعت فلم تعد تقوى على النباح حيث توسد كل واحد منها مكانا في الرمل استدفأ فيه ونام، وكان شيوخ اليمامة قد عقدوا مجلسا لمناقشة الامر .. وليحددوا من خلال مجلسهم هل هم مع السلم ام مع الحرب .. مع التسليم أم مع المواجهة ..

قال واحد منهم :

– لقد ارهقتنا تكاليف المحاربين ، وصار ذهبنا كله يذهب سدى في حديد السيوف والحراب والرماح ... حديد نحن ندفع ثمنه ذهبا خالصا .. لنضعه في ايدي الصعاليك والرعاة والدهماء .

وقال واحد آخر :

– ولو ان الامر اقتصر على ما ندفعه من ذهب وفضة لهان الامر .. ولكن الغلمان والموالي ورعاة الابل والماعز ، اصبحوا يتطاولون علينا .. بل انظروا ماذا حل بي انا .. وانا واحد منكم ..ان همام راعي ابلي ..هذا الصعلوك التعس ، جاءني قبل ايام متمنطقا بسيفه ، مختالا كالطاووس ، جاءني يطلب يد ابنتي حسناء ، يا لكم شعرت بالمذلة والعار .. ابن الجارية هذا يريد الزواج من ابنتي انا .. هل تعرفون ماذا قلت له ؟. قلت له :

– لا تنس يا هذا انني دفعت لك من ذهبي ثمن هذا السيف ، واسرجت لك حصانك .

– وماذا كان رده ؟

– ماذا كان رده .. هه .. ستعجبون .. لقد ظل مختالا امامي كالطاووس وقال لي :

– لا تنس ان فرسان اليمامة احق بعذارى اليمامة من جنود كسرى ..

– لا والله .. لا والله .. ان كسرى اشرف لنا من ان يحكم اليمامة رعاة ابلها ..

وفي تلك الليلة ، كان قادة الفصائل الذين انيط بهم ان يكونوا على رأس الفرسان لرصد حركة الاعداء .. وصد اية مباغتة ، والدفاع عن اليمامة ، كان قادة الفصائل قد خبأ كل واحد منهم في سرج حصانه دنا من الخمر ، وضرب لجارية من جواريه موعدا في احد البساتين ، بينما كان الجنود ساهرين ، كان الجنود كلهم من اهل اليمامة ولكن من نصفها الاخر ، مزارعو البساتين وحفرة الآبار ، ورعاة الماعز والابل ، وحراس القوافل التجارية ، وحراس البساتين ، والغلمان الذين يخدمون في الدور الكبيرة ، وصناع القهوة في الدواوين الكبيرة ، وكان همام واحد منهم ، شاب لم يتجاوز العشرين من عمره بعد ، قوي الجسم مليح الوجه ، دمث الاخلاق ، عيناه كعيني الصقر ، عندما وعى نفسه وجد انه راعي ابل عند احد شيوخ اليمامة ، وكان والده قد مات وهو طفل صغير ، كان يحرس احدى القوافل حين هاجمتها عصابة من قطاع الطرق ، كان كمينا خانقا في وسط الصحراء ، لم يتمكن من النجاة فتمكنوا منه وقتلوه .. ولكن بعد فقدان الزوج اهتمت الام بطفلها ، وكانت تعلمه أن يكون مثل ابناء السادة ،بل وافضل منهم ، ولقد

ذاع صيت راعي الابل همام ، حين هاجمته مع قطيعه الذئاب الجائعة ، تمكنت في البداية من بقر بطن احدى النوق الصغيرة ، وحينئذ هيجها الدم اكثر ، فصارت تمر من بين القطيع مثل مروق السهم الخاطف ، وكاد القطيع يهلك لولا ان تمكن همام من قتل ثلاثة ذئاب ، مما جعل بقية الذئاب تهتم بتمزيق اجساد قتلاها ، ويتمكن مع قطيعه من النجاة .. يومها ذاع صيته كاشجع الشباب ، وجعله هذا يأخذ ثقة في نفسه الى الحد الذي يتبارى مع اولاد الشيوخ في المبارزة ، ويمزق قمصانهم عن لحم صدورهم ، ويطير من ايديهم سيوفهم في الرمل ، ويجعلهم يحتقنون خجلا ..

ولقد احبته حسناء التي هي من المفروض ان تكون مولاته .. نعم احبته ، ولطالما منحته نظرة وهي خارجة من خبائها ، او ارسلت صوتها يمسح على قلبه عندما تنادي على صويحباتها .. بل انها تجرأت ذات يوم في غفلة من عيون المراقبين وانشدته ابياتا عذبة من الغزل الرقيق ، اوضحت له فيها انها تحبه وتتمناه رجلا لها من بين كل رجال اليمامة .

ولكن هذا المجد الذي مني به همام ، لم يجعله لحظة واحدة يبتعد عن ابناء الموالي امثاله ، ورعاة الماعز والابل ، ومزارعي البساتين ، وحراس القوافل الذين يفقدون حياتهم ، لقاء دراهم قليلة ، بل وربما مقابل بضع كلمات من الاستحسان يلوكها لهم صاحب القافلة .

ظل همام وفيا لهؤلاء .. وكانوا يقولون له :
— يا همام : انت فخرنا جميعا ..

بل ان همام الفارس الشجاع ، ذهب الى ابعد من ذلك ، حين صار يكثر من التردد على العرافة ، امرأة يتحدث عنها الفقراء برهبة وقداسة واحترام شديد ، اتخذت لنفسها مكانا قصيا عن القوم ، واختلف الناس في امرها .. منهم من يقول :
— انها تعرف لغة النجوم ..

ومنهم من يقول :
— انها تضرب في الرمل ..

وآخرون يقولون :
— أن روحا تتملكها فتخبرها عن الحقيقة ..

اما شيوخ اليمامة وجواريها فكانوا يقولون عنها :
— انها امرأة مخبولة .. اصابها مس من الجنون ..

ومهما يكن فان اكثرية الناس كانوا يذهبون اليها ، يستشيرونها في الزواج ، ويستخيرون بركتها في الانجاب ، ويستسقون المطر بدعوات يرتلونها حول خيمتها حين يتأخر سقوط المطر .. ويستبشرونها في السفر وفي كل ما يتعلق بالمجهول ... امرأة متشحة بالسواد ، لا يظهر منها سوى عينيها الزرقاوين اللتين حين تحدق بهما تنفذان الى اعماق القلوب وتخترقان حجب الغيب والمستقبل ..

بدأت العلاقة بين همام والعرافة التي اشتهرت باسم زرقاء اليمامة ، عندما كان صبيا اخذته امه عند العرافة وفاء لنذر قديم ، ويومها ربتت العرافة على شعره وتمتمت لامه :
— سيكون لهذا الصبي شأن فيما بعد ..

ثم انه حين نجا من الذئاب وتغلب عليها ذهب عند العرافة ، ليجد عندها الطمأنينة ، هكذا نصحه الناس الذين احبوه وارادوا له السلامة دائما ...
— اذهب عند العرافة ..
— توجه عند زرقاء اليمامة ..

وذهب فعلا .. وتكرر ذهابه ، صارت العرافة تأنس اليه ، تحدق في وجهه بعينيها الزرقاوين فتنفذ الى اعماق وجدانه اليافع ، ومرة بعد المرة كانت تومىء له ببعض الايماءات والاشارات وتلقي عليه بكلمات قصار ذات مدلول عميق .. تتحدث عن الماضي ، وتتنبأ له بما هو آت في المستقبل ، وفي احدى المرات قالت له :
— أن اليمامة سيؤخذ اهلها بغتة ..

فمن ينقذ اليمامة ؟

ظل واقفا قبالتها وقد اصابته رعشة ، وتملكته رغبة ملحة في ان يسمع المزيد ، ولكنها اسبلت اجفانها .. ولم تقل شيئا ، وانطوت على سرها الكبير مثلما تنطوي الصحراء الواسعة على اسرارها الازلية .

— ٢ —

كانت الخصومات بين قبائل اليمامة والقبائل الاخرى ، خصومات قديمة عميقة الجذور ، متعددة الاسباب والدوافع .. لعل ابرزها ان ارض اليمامة كانت تحتكر الخصوبة والغنى .. وبالتالي تحتكر السطوة والجاه ، ولقد خلق ذلك مشاحنات كثيرة ، وحروبا متعددة ، وغزوات متتالية قامت بها قبائل كثيرة .. وان ذلك كله خلف وراءه جراحا لا تندمل ، وثارات لا تهدأ ، وطموحات لم تمت في قلوب اصحابها .

ومنذ فترة ليست بالقصيرة ، تواترت الاخبار ان القبائل وحدت رأيها ووحدت سيوفها لغزو اليمامة ، هكذا افاد حراس القوافل التجارية ، والرعاة الذين تم ارسالهم لمعرفة الاخبار . وهكذا افاد الرعاة انفسهم الذين انبثوا في كل مكان يؤلبون خصوم اليمامة ، ويستثيرون حقدهم ، ويشحذون هممهم ..
— ان اليمامة قد باءت .. ولا بد لها ان تدفع الثمن ..
— ان اليمامة قد تجاوزت كل الحدود ، ولا بد من تقليم اظافرها ..

ـ ان اليمامة تقف في طريق احلامنا المشتركة .

ولقد كان واضحا ان هذه الغزوة تختلف عماتعرضت له اليمامة من غزوات سابقة ، فان شيوخ القبائل الذين كانوا متخاصمين قد اصلحوا فيما بينهم ، وكثـرت الجولات ، بل أن مؤتمرا سريا عقده رؤساء قبائل بكـر وتغلب وتميم رعاه المناذرة قد تقرر فيه كل شيء ، وها هي العرافة .. ها هي زرقاء اليمامة تلقي بالنبوءة وتعلن الصيحة ..

ـ ان اليمامة سيؤخذ اهلها بغتة ..

فمن ينقذ اليمامة ؟؟

لقد سمع الناس بالصيحة .. وعلموا بامر النبوءة .. فتقاطروا من كل حدب وصوب الى العرافة يستزيدونها ايضاحا ، يسألونها النصيحة فيما هم فاعلون ،صحيح انهم هم الجوعى والمتعبون .. وانهم اذا وقع الغزو لا يخسرون سوى خيامهم وذلهم .. ولكن كما قال لهم همام ذات مرة :

ـ ان اليمامة ستكون لنا في مستقبل الايام .. روينا ارضها بالدم .. ونزفنا عرقنا ليكون الخصب .. ومستقبلنا في هذه الارض .. اننا نذافع عن المستقبل .

وكان لحماس الناس وضغطهم المتزايد اثر كبير مما جعل شيوخ اليمامة يرضخون مكرهين ، فيجندون الجند ، ويشترون السيوف والرماح والحراب ، ويسرجون الخيول ، ويستهلكون مقادير كبيرة من الحنطة ، ويذبحون الخراف والابل لاطعام المحاربين الساهرين ، كما ارسلوا بعض ابنائهم ليكونوا قادة للفصائل . ووقع الاختيار على همام راعي الابل السابق ، ليكون على رأس فصيل في الكمائن الاولى ، وكان كل يوم جديد يأتي يؤكد اقتراب المعركة فيزداد حماس الناس ، وتزداد اهمية المحاربين والسلاح ، بل انه عندما بدأت المناوشات ووصلت اخبارها ، وكان يأتي شهيد أو جريح ، كان الناس يخرجون يحتفلون به ، يقرضون الاشعار ، ويؤلفون الاغاني ، ويمنحون للابطال ثقتهم المتزايدة ، بل لقد وجد همام ذات يوم ، ان الفصيلة التي يقودها هي اكبر الفصائل ، فلقد كان اسمه مثارا للفخر ، وكثيرا ما كان يصل اليه شباب صغار السن ، حفاة او على ظهور خيولهم يقولون له :

ـ جئنا نحارب معك ..

ـ جئنا لنكون تحت امرتك ..

ـ أوصانا الاهل الا نكون الا معك ..

شباب من كل اطراف اليمامة ، ومن مختلف قبائلها وعشائرها . .وكان كل ذلك يثير حفيظة شيوخ اليمامة ، ويوشك ان يفقدهم الصواب ، وهكذا واصل الشيوخ الحانقين مجلسهم في تلك الليلة التي توسط البدر فيها صفحة السماء .. قال رئيس المجلس :

ـ ان الامر الذي ذكرتم صحيح .. ولكن هناك ما هو اخطر منه ، واعني بذلك ان الناس في اليمامة قد افتتنوا بهؤلاء الذين جعلنا منهم فرسانا ، كما ازداد الناس ولعا بالخيل والسلاح ، ولعمري يا شيوخ اليمامة اننا سنواجه الصعوبات ..

وها انذا اسألكم :

ـ من منكم يستطيع ان يقف في وجه هؤلاء ان جاءوا الينا منتصرين ؟ من منكم يستطيع ان يقول لهم عودوا مثلما كنتم رعاة .. وخدما في الدواوين ؟؟

كان الرجل يتحدث بانفعال كبير ، وقد اطبق الصمت ، وجفت الحلوق ، واشتعلت العيون بالحقد ..

وواصل رئيس المجلس حديثه :

ـ ان مجلسنا المحروس ببركة الالهة ، لم يجتمع لكي نسرد على مسامع بعضنا ما اصاب كلا منا من الاذى .. فهذا امر نعرفه ونعيشه في كل لحظة .

ولكن مجلسنا اجتمع لنجد الحل .. وانا اسألكم جميعا :

ـ ما هو الحل الذي ترون وتقدرون ؟

وفي تلك الليلة حدث ارتباك في صفوف جنود اليمامة الموجودين في مخافرهم وكمائنهم ومفارزهم ، وعلى ظهور خيولهم ، فلقد اندس بينهم من يطفيء رغبتهم في المواجهة والقتال .

ـ لماذا نموت هدرا ..؟

ـ الاعداء ذهبوا من حيث اتوا ..

ـ لن يكون الا الصلح ..

ـ لنتريث بدل ان نركب رؤوسنا ..

ولقد نجح المندسون فعلا .. فقد تمزق الاستنفار ، وتميع الحماس ، وعادت كثير من السيوف الى اغمادها ، وترك كثير من الفرسان اعنة خيولهم فهامت على وجهها في الصحراء .. بل ان عدوى ما حدث كادت ان تصل الى الكمائن الاولى حيث همام على رأس فصيله ، فدار على رفاقه في كل المواقع يشرح لهم الامر ..

ـ ان من يقبحون القتال في عيونكم ، لا يشفقون عليكم بل يخافون منكم .. سنقاتل ما وسعنا ذلك .. ولتتذكروا .. ان تخلينا عن سيوفنا ، سنعود الى عصا الرعاة ، ان تخلينا عن اعنة خيولنا ، سنرزح تحت نير الذل ..

وفي تلك الليلة ، تركت زرقاء اليمامة خيمتها المنزوية ، وذهبت الى الشيوخ في مجلسهم ، فاجأتهم مثل الضمير اليقظ :

ـ اني ارى الاعداء قادمون .. اراهم ببصري وبصيرتي ، يتسترون بافرع الشجر ، واطياف الليل ، وستائر الخدعة .. اني ارى الاعداء قادمين .. فلا تفرطوا ..

ولكن الشيوخ كانوا قد تواطأوا .. تصايحوا في وجهها وهم يدفعونها من مجلسهم كانما يدفعون شرا..
— يا لك من امرأة مخبولة .. اغربي عن وجوهنا.. اذهبي الى الرعاع اما نحن فلا نصدقك ..

وانطلقت العرافة تطوف بين القوم :
— يا اهل اليمامة .. اني ارى الاعداء قادمين .. لن يكون الفجر حتى يصلوا .. كونوا حذرين حتى لا تؤخذوا بغتة .. الاعداء قادمون ..

كان صدى صوتها تحمله الريح ..ويسري في الليل بلا توقف .. فاندفع الكثيرون الى مواقع يقاتلون فيها ، وكانت قد وصلت الى حسناء رسالة من همام ان تترك القباء الى مكان بعيد ان هي ارادته ، فتسللت مع الزحام ومضت الى حيث يريدها ..

ولقد هبط الاعداء عند الفجر ، هبطوا كالجراد ، واختلط الغبار مع دخان الخيام المحترقة ، مثلما اختلط صليل السيوف مع صرخات الذعر والسبي ، وامتزجت الدماء والاشلاء بالرمال ، ورفعت اليمامة راية التسليم، وكان همام ورجاله هم وحدهم الذين حاربوا .. لكنهم حين وجدوا الامر مطبقا من حولهم .. قرروا الاحتفاظ بانفسهم وسلاحهم وخيولهم لجولات اخرى ، وكان هذا اتفاقا فيما بينهم ، كل مفرزة من جنود همام اتجهت الى مكان معين في الصحراء .. انتظارا لما سوف يحدث ، واعدادا للامور من كل جوانبها ، فلقد وقعت اليمامة في الاسر ، ولكن الصحراء الواسعة ما زالت تحتفظ باسرارها .. وما زال المدى الفسيح مملوءا بالخيل والسلاح والفرسان ..

— ٣ —

كان اول شيء فعله الغزاة حين وصلوا ، انهم بحثوا عن همام فلم يجدوه ولم يجدوا من يدلهم عليه ، وانهم بحثوا عن زرقاء اليمامة ، فوجدوها ، وجاءوا بها الى ساحة كبيرة جمعوا فيها الناس واشعلوا في الوسط نارا عظيمة .

قال قائد الجند :
— ايتها العرافة التي كنت تؤلبين علينا ،وتحرضين ضدنا .. نريدك ان تدلينا اين همام ؟

كانت زرقاء اليمامة مقيدة الذراعين والساقين وجنود غلاظ يمسكون بها .. ولكنها لم تتحدث شيئا ، فعاد قائد الجند يلح عليها ، لكنها اكتفت بالصمت ، وحدقت فيه بعينيها فاحس كأن سهاما نارية تخترق احشاءه ، فاستشاط غضبا .. وقال يخاطب الجمع :
— عرافتكم هذه .. لن ترى بعد الان شيئا،سنسمل عينيها بالنار جزاء لتكون عبرة للجميع ..

واعطى قائد الجند اشارة من يده ، فتقدم من العرافة اثنان من الجنود ، كل واحد يحمل في يده حربة محمّاة في النار ، متوهجة الرأس . اقترب الفارسان حتى كادت رؤوس حربتيهما تلامس عيني المرأة .. ثم بكل ما اوتيا من قوة غرسا حربتيهما في عينيها .. واغمض الناس عيونهم من قسوة اللحظة ، وتصببت اجسامهم عرقا من وطأة المشهد الفظيع ، لكن صياحهم بدأ يتعالى ، فلقد حدثت المفاجأة ، انطرح الفارسان ارضا ، وطارت من يدهما الحربتان وانغرستا في الرمل امام الجميع ..

وعاد قائد الجند يصرخ :
— قطعوها اربا..مزقوا لحم هذه المرأة الشريرة ..

والتف الجند من حولها ، تناوشوها بسيوفهم وحرابهم وخناجرهم ، تمزقت ثيابها وسقطت عن صدرها، ولكن المفاجأة كانت اعظم ، تغوص السيوف والحراب والخناجر في لحم العرافة ، تقطعه ولكن ما ان يستل الواحد خنجره بعد الطعنة حتى تنبثق من مكان الطعنة عين جديدة ، وتظل المرأة منتصبة كأنها علامة تصل الارض بالسماء .

انهار قائد الجند ، وانكفأ فوق الرمل لا تقوى ساقاه ان تحملاه ، وفرك شيوخ اليمامة لحاهم في قلق بالغ ، خشية ان يعود الامر وينقلب ضدهم ، وتماوجت الجموع وهي تهمهم ثم تعالى هتافها وكاد يفلت الزمام ، لولا ان انبعث صوت :
— لن تقتلها سيوفكم ..
— هذه المرأة يكمن سرها ، في ان الذين يستطيعون قتلها هم قومها انفسهم ..
— دعوا شيوخ اليمامة يقتلون عرافتهم ..

استفاق قائد الجند من غيبوبته على صدى الصوت، فهب واقفا على قدميه ، وصرخ في شيوخ اليمامة ان يقتربوا .. اعطى كل واحد منهم سيفا وقال لهم :
— هذا دمكم فلتسفكوا دمكم .. هذه لعنتكم .. فلتحملوا لعنتكم .. هيا اقتلوها ..

وتناوشتها سيوفهم ، كان دمها ينتشر على وجوههم فيجف بسرعة من وهج النار المتقدة ، وما هي الا هنيهة، حتى تمزق جسد العرافة ، ونزفت كل دمائها ،وهوت فوق رمال اليمامة وتحت سمائها ، جثة هامدة بلا حراك ..

وفيما بعد ،
عندما ظهر الفرسان المختفون ، وبرز السلاح الذي كان مخبأ تحت الجلد ، وصهلت الخيول التي كانت متوارية في اطراف الصحراء .. فيما بعد ،

لم يستطع شيوخ اليمامة ان يمسحوا عن وجوههم ذلك الدم المتجمد ، وكان ذلك هو العلامة التي تميزهم ، كانت خيانتهم مطبوعة بالدم على وجوههم .. حين جاء موعد العقاب ..

د. احمد مرسي

الفولكلور والاسرائيليات (*)

في عام ١٩٧٠ ظهر المجلد الاول (١) من سلسلة دراسات عن الفولكلور اليهودي بعنوان (Folklore Research Center Studies) اصدره مركز البحث الفولكلوري (Folklore Research Center) ومعهد الدراسات اليهودية (Institute of Jewish Studies) وهما معهدان علميان تابعان للجامعة العبرية في القدس .

ويتكون هذا المجلد من قسمين ، الاول للدراسات المكتوبة بلغات غير العبرية (كالانجليزية والفرنسية) والثاني للدراسات المكتوبة بالعبرية ، ويتضمن هذا المجلد ثلاثين دراسة (ست دراسات منها بالانجليزية والفرنسية) يتناول فيها كاتبوها بالدراسة والتحليل جوانب عدة من التراث اليهودي ، وعلاقته بغيره مما يتصل به .

وقد سبق ان ذكرت في مقدمة الكتاب الذي يحمل نفس عنوان هذه الدراسة (٢) ان الاهداف الاساسية لهذه الدراسات التي يتضمنها هذا المجلد هي اثبات :

اولا : ان المأثورات الشعبية او الفولكلورية الخاص بمنطقة الشرق الاوسط ـ بما فيها اسرائيل بالطبع ـ متشابهة ، او متماثلة اذا شئنا الدقة في التعبير ، على الرغم من تعدد اصول شعوب المنطقة ، وتنوع لغاتها ، واختلاف عاداتها وتقاليدها .

ثانيا : ان كثيرا من مظاهر الحياة الشعبية العربية سواء من ناحية اللغة او السلوك او غيرهما انما تعود الى اصول عبرية ، او منابع يهودية قديمة .

ثالثا : تغيير بعض الفكرات التي لصقت باليهود طوال تاريخهم ، واسهمت في تشويه صورتهم امام غيرهم من الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيها .

واضيف هنا هدفا رابعا يجمع كل هذه الاهداف معا ، وهو اثبات ان لليهود فولكلورهم الخاص بهم ، مستخدمين في ذلك كل الوسائل التي يمكنهم استخدامها ، سواء استقامت مع الحقيقة العلمية ، ام لوت عنق الحقيقة العلمية لكي تستجيب لاغراضهم ، فكل ما يقوله اليهود من امثال او ما يحكونه من حكايات ، او ما يمارسونه من عادات ... الخ وما حملوه معهم الى فلسطين على اختلاف الاوطان التي عاشوا فيها ، وتاثروا بها يندرج تحت « الفولكلور الاسرائيلي » سواء استعاروه من غيرهم او حوروه ليناسب اهدافهم .

لقد حرصوا كل الحرص على دراسة فولكلور الشعوب الاخرى ، وخاصة تلك الشعوب التي شهدت تجمعات يهودية كبيرة ، او ذات خصوصية متميزة ، بالقياس الى الشعوب الاخرى التي لم يكن للتجمعات اليهودية فيها شان كبير ، وذلك لكي يتعرفوا على الصورة التي كونتها هذه الشعوب لشخصية اليهودي وانعكاس ذلك على سلوكهم ازاءهم ، وهو امر ذو فائدة جليلة بالنسبة لهم .

لقد اهتموا ببولندا مثلا اهتماما كبيرا ، ذلك انه من المعروف ان بولندا كانت تضم احد التجمعات اليهودية الكبيرة في اوروبا ، ومن ثم يمكن ان تصلح مثالا يوضح وجهة نظر الشعوب الاوروبية تجاه اليهود . كما اهتموا ايضا بالاقطار العربية ، وركزوا بصفة خاصة على فلسطين ، والمغرب لوجود تجمع يهودي كبير به لاسباب تاريخية معروفة ، وعلى اليمن ايضا ، وذلك ان يهود اليمن يحتلون مكانا خاصا سواء من الناحية التاريخية او العرقية او الثقافية .

ركز الدارسون اليهود في دراساتهم ـ اتساقا مع اهدافهم ـ على دراسة النموذج المتكرر او الثابت لشخصية اليهودي كما رسمته الشعوب المختلفة وثقافاتها الشعبية ، ومأثوراتها تركيزا كبيرا ، وبين ايدينا نموذج لدراسة عن « صورة اليهود في الثقافة الشعبية البولندية » (٣) ، وتهدف هذه الدراسة الى تقديم صورة وصفية مختصرة لهذه الشخصية كما تظهر على نحو ثابت متكرر في الثقافة البولندية .

تبدأ الدراسة بمقدمة نظرية تحاول ان تحدد بشكل مبدئي بعض العمليات الاجتماعية التي ادت الى وجود هذه الصورة النمطية ، كما تحاول ان تحدد بشكل خاص العوامل التي تؤدي الى بلورة مفهوم جماعة

(*) استخدمنا مصطلح الاسرائيليات بالمعنى الذي استخدمه علماؤنا الاوائل عندما قصدوا به ما ادخل اليهود من زيف في تراثنا ، وبذلك فنحن نعني به « الزيف »

(١) صدر مؤخرا مجلدان آخران .

(٢) احمد مرسي ، وفاروق جودى : الفولكلور والاسرائيليات ـ دار المعارف .

(٣) الكاتب : اولجا جولد برج .

ما في ثقافة معينة ، تجاه جماعة اخرى ، وترى كاتبة الدراسة ان هذه العوامل يمكن تلخيصها في هذين العاملين :

١ ـ الخلفية الثقافية للجماعة .

٢ ـ خصائص الثقافة الشعبية التي تعيش في اطارها هذه الجماعة .

ثم تذهب الى ان اللغة ، والقيم ، والازياء الخاصة باليهود ، قد اسهمت في خلق جدار فاصل صلب ، فصل اليهود عن مواطنيهم البولنديين ، وابعدهم عنهم ، وعزلهم الى حد كبير عن الثقافة البولندية .

وتبدأ الكاتبة في تحديد ملامح الشخصية اليهودية من خلال تحليلها واستقرائها للثقافة البولندية . فترى ان صورة اليهودي تبائع متجول ، او صاحب حانة ، صورة نمطية تتكرر كثيرا ، بشكل ثابت لا يتغير ، كما ان الصورة الاخرى التي ظهر بها اليهودي ، لاتختلف اختلافا جوهريا عن هذه الصورة ، فهو يظهر احيانا كتاجر ماشية ، او تاجر دقيق ، او ادوات مستعملة ، ومن النادر ان يبدو اليهودي في المخيلة الشعبية كحرفي ، كما انه من النادر ايضا ان يؤدي في المخيلة الشعبية وظيفة او مهنة من تلك الوظائف والمهن التي تعد ذات اهمية خاصة بالنسبة لليهود انفسهم ، مثل الحاخام او المدرس مثلا .

وفي معظم الحالات ، تكون الشخصية اليهودية الرئيسية في الحكايات الشعبية رجلا ، ولا تظهر المرأة الا نادرا على مسرح الحكاية الشعبية . وغالبية هذه النماذج النمطية تعكس الموقف الحالي ـ من وجهة نظر الكاتبة ـ للبيئة التي عاش فيها اليهود وما زال بعضهم يعيش فيها ، كما تعكس مشاعر الناس تجاههم ، وفكرتهم عنهم ايضا ، فقد صور الشيطان مرة في احدى الحكايات على سبيل المثال ، يلبس غطاء راس يهودي .

هذا عن صورة اليهودي في الحكايات ، اما على المسرح ، فان شخصية اليهودي يمكن التعرف عليها في سهولة ويسر عن طريق الخصائص التي اضفاها المجتمع عليهم ، او اتصفوا هم بها ، كالمهنة والشكل التقليدي او الزي ، واللغة .. الخ فالممثل الذي يشخص اليهودي في الاحتفالات السنوية ، يضع قناعا على وجهه لكي يوحي بشخصيته اليهودية ، وهذا القناع الذي يعبر عن الملامح اليهودية الخاصة يتكون من لحية وسوالف وشفاه رفيعة ، وجفون ناتئة بارزة ، وانف طويل .

اما النموذج النمطي الذي يظهر في الفنون التشكيلية كالنحت والرسم الشعبي مثلا ، فانه يخضع للاسلوب نفسه ، وان اختلفت الصورة في بعض تفاصيلها من اقليم لاقليم .

يتضح اذا من هذا المثال الذي اوردناه ، مدى حرص الدارسين اليهود على التعرف على صورة اليهودي في المجتمعات التي عاش فيها اليهود ، مهما كانت هذه الصورة كريهة على نفوسهم او محببة الى قلوبهم ، الا ان الدراسة الى هدف اخر خفي ، وهو امر متكرر في كثير من الدراسات اليهودية ، اذ يريدون اثبات تميز اليهود بخصائص محددة ، وملامح ثابتة مهما كان من امر هذه الخصائص ، وتلك الملامح او من نظرة الاخرين اليها .

ولعل في ما اورده « حاييم شفارتز باوم » نقلا عن الشاعر البولندي « ادم ميكيفتش » ما يؤكد هذا الحرص ، فقد روى « ادم ميكيفتش » لصديق له عن لقائه بسائق يهودي ، كان قد سافر معه لمدة يومين ، ان هذا السائق قد ترك في نفسه اثرا عميقا بحكاياته التي حكاها له اثناء الرحلة ، ويقول ايضا « ان هذه القصص التي رواها السائق توضح ان شخصية القصص اليهودية مختلفة تماما عن قصصنا البولندية ، على الرغم من ان بولندا تمثل البيئة التي تعيش فيها هذه القصص ، وهي مجال حركة ابطالها ، وان تركيب حبكتها واسلوب القص يذكرنا بحكايات الف ليلة وليلة . وهذه العناصر ـ الموتيفات ـ اما انها جاءت من اسيا او تكونت في بولندا نفسها بشكل مشابه ، بسبب ان الروح الاسيوية تتخلل اليهود ، وتنتشر بينهم ، وحيثما تظهر تلك الروح الاسيوية ، فانها تشهد على قدرة رائعة على الخلق الاصيل » .

انهم يريدون تاكيد ان هناك عالما يهوديا خاصا ، ويحرصون على ذلك كل الحرص ، فلهم لغتهم التي تختلف عن لغة المجتمعات التي عاشوا بين ظهرانيها ، ولهم ازياؤهم المتميزة ، وعاداتهم وتقاليدهم الخاصة ، مما يؤكد ما يدعونه من وحدة المجتمع اليهودي ونقائه عرقيا وثقافيا واجتماعيا ، الامر الذي كذبه الواقع وشهادة كثير من الدارسين اليهود وغير اليهود ، ولعلنا من خلال المثال التالي من نماذج دراساتهم نضرب عصفورين بحجر واحد كما يقال في المأثورات .

الاول : هو ايراد نموذج لدراسة تهدف الى تغيير بعض المفاهيم الخاصة بالشخصية اليهودية .

والثاني : هو الرد على فكرة وحدة المجتمع اليهودي ، وبيان مدى عدم صحتها ، اذ استخدم كاتب الدراسة عكس هذه الفكرة ، لكي يؤكد صحة ما يريده .

ان الدراسة هي بعنوان : « نظرة جديدة في مفهوم النكتة اليهودية » (٤) ، وهي تناقش موضوع النكتة اليهودية وتعبيرها عن الشخصية اليهودية ، ذلك ان ابحاث « فرويد » عن العلاقة بين النكتة واللاوعي ، وملاحظاته الخاصة بالنكتة اليهودية ، قد وضعت الاساس الذي حللت بناء عليه الشخصية اليهودية ، ومن ثم ذهب الدارسون بعد ذلك الى ان السمة المميزة للشخصية اليهودية هي «الاستخفاف بالذات او تعذيب الذات» وعلى ذلك فقد بنى على هذه النتيجة ان التانيب الذاتي الذي يتسم بالقسوة قد عد سمة يهودية بارزة تصوغ سلوكهم .

وتهدف دراسة « دان بن عاموس » الى تعديل هذه النتيجة ، واثبات انها قد بنيت على معلومات ناقصة ، ومواد غير كافية للتحليل العلمي الصحيح ، ذلك ان الذين عمموا هذه النتيجة ، وسلموا بصحتها لم يضعوا في اعتبارهم الظروف الاجتماعية لرواة النكات اليهود من ناحية ، بالاضافة الى انهم لم يتنبهوا الى انهم انساقوا وراء فرض غير صحيح وهو ان ما يسمى بالامة اليهودية وحدة واحدة وانها خالية من الطبقات الاجتماعية والفئات السنية ، والاختلافات المهنية .. الخ من ناحية اخرى .

ويرى الكاتب انه نتيجة لدراسات بعض الباحثين الامريكيين في مجال الفولكلور ، والتي ترى ان النص الادبي الشعبي لا يصلح وحده اساسا للتحليل ، اذ لا بد من ان يضاف اليه ايضا الحدث المرتبط به او المتضمن فيه ، فانه يمكن النظر الى النكتة اليهودية من وجهة اخرى ومن زاوية مختلفة تماما ، مما يصحح كثيرا من النتائج التي توصل اليها دارسون اخرون حول هذا الموضوع اهملوا بيئة النكتة ورواتها . ويذهب الى ان القاعدة العامة انه من النادر ان يحكي شخص نكتة يكون موضوعها خاصا بطبقته الاجتماعية ، او ان يسخر انسان من مجموعته الوظيفية او المهنية ، ومن ثم يمكن القول ان اليهود قد يسخرون من رفاقهم اليهود في نكاتهم ، ولكن النقد المتضمن في النكتة يكون غير مباشر ، وقد يكون موجها في بعض الاحيان الى شخص راوي النكتة او الاشخاص الذين يعد نفسه منتميا اليهم اجتماعيا او ثقافيا .. الخ . ولكن الاكثر وضوحا هو

---

(٤) الكاتب : دان بن عاموس

محمد جبريل

سطور في الصفحة الاخيرة

خطوة ، خطوتان ، ثلاث خطوات . البداية من هنا ..

ــ انت ؟

العد صحيح ، فهل اخطأت البيت ؟ بركة الفيل كأنها هبطت الى باطن الارض . كل الملامح غابت في الظلمة . حتى الظلال الرمادية تلاشت ، وساح المكان في ظلمة عميقة ، عميقة . رائحة بئر السلم دليلي الذي لا يخطيء ..

ــ حاسب يا ابن المرة ..

الصوت اعرفه جيدا . اسرفت ــ ربما ــ في الحفاوة بالسنجق رضوان الجداوى ، فشربت الكثير . لكن : متى هد" الشرب قواي ، فاذهلني عن نفسي ؟ الافضل ان ابدا من جديد . السواد طبقات كأني فقدت البصر . التوقع ــ وحده ــ وسيلة الوصول الى باب القاعة الرئيسية . خطوة . خطوتان ، ثلاث ..

ــ اذا اصطدمت بي ثانية ، قتلتك !..

المؤامرة !.. افلحت في تفادي ضربة السيف التي ارادت اقتطاف الثمرة الاخيرة في شجرة الماجدين . هذا اللهب المتراقص اشارة بدء التنفيذ : الرصاص والسيوف والخناجر والسهام والنشاب والزاريق . العين التي تطل من اطار اللهب كأنها لقرصان . قسمات الوجه ترسم السذاجة والطيبة ..

ــ لا تغضب يا محمود افندي .. ايقظت الولد مخلوف ، فدفعك بيده ، ولم يقصد ايذاءك ..

ــ كنت اقصد يا معلم ..

ــ اخرس يا ولد ..

ــ هذا مولد كل ليلة .. يغرق في الخمر ، ويعود ليوقظنا ، ويوقظ الحي كله ..

ــ لا تغضب يا محمود افندي .. خذ علبة الكبريت لتنير السلم ، واصعد الى شقتك ..

الصوت اعرفه . اليد التي لا اعرفها تربت على الكتف في مودة زائفة . اليد الاخرى ، المرتعشة ، تدفع ــ لا بد ــ بما يمزق الجسد . البراءة ــ الان ــ في النجاة بحياة اخر سلالة الامراء المصرية . اصعد الى شقتك وخذ العلبة . الامراء سكناهم القصور . البيوت القزمة المتساندة حلم طارىء تبدده ضخامة القصر الذي يكاد يبتلع ــ في مساحته ــ بركة الفيل . التنبه لحركات الايدي وايماءات الرؤوس وارتعاشات الاهداب واتجاهات النظرات ، جسر الوصول الى بر الامان ..

ــ انت لا تقوى على الوقوف ، فهل اساعدك في الوصول الى شقتك ؟ ..

المؤامرة ! .. الليلة مشهودة . لن يكون الخلف اقل جسارة وثباتا من الاسلاف الراحلين . الخديعة تواجه سيفا بتارا يتطهر بدماء الخيانة . حتى الغادر محمد علي لم يجتث الشجرة الخالدة ، فهل يفلح هؤلاء الذين لا يعرفون اصلهم ولا من اباؤهم ولا كيف اتاحت لهم الحياة ان يتنفسوا لحظاتها ؟.. يريدون اصطياد اخر السلالة المضيئة . الجرائد تكتب : ابناء الفلاحين يغتالون اخر المماليك . بركة الفيل تشهد الفصل الختامي لمذبحة القلعة . مصرع اخر المماليك. المماليك ؟ ولماذا الاخر انا ؟ ..

العابثة جلنار اعتذرت بانها لن تتزوج حسبا ونسبا ، فالمال حسبها ونسبها ..

ــ ياجلنار .. لست وضيعة الاصل حتى تتزوجي فلاحا ..

ــ اسمي عائشة .. ولست بلهاء حتى أتزوج مفلسا مثلك ..

ــ اني احيا على ايراد بيت بركة الفيل ، والبيت الاخر في الصنادقية ..

ــ بالكاد تحيا على ايرادهما ..

ــ ذلك لاني اسرف في النفقات .. اما بعد الزواج ..

ــ سناكل عيشا ودقة ..

ــ ولماذا لا اعمل ؟..

ــ نعم .. لماذا لا تعمل ؟ .. ولماذا لا تعمل الآن ؟..

العين التي يحيط بها اطار اللهب تقترب ، تحدق ، تبين عن الحقد والخديعة . الفريسة في الشباك . الخوف من صيحة الاستغاثة التي يسرع لتلبيتها الالاف من الاعيان والجاويشية والملازمين والسعاة والاغوات . الخطوات بطيئة ، متثاقلة . الخدر يسحب الساقين الى اسفل . ليس الافراط في الشراب ، وانما الارهاق من تعب النهار . حاذر ان تسقط . الكلاب ربما حفروا بئرا ..

ــ يا مجنون .. الى اين تعود ؟

لا تلتفت الى وراء . ضوء الطريق الشاحب يتسلل من الباب القريب . ها انت ــ اخيرا ــ خارج القصر والمؤامرة . النجاة انقاذ سلالة باكملها لا مجرد انقاذ حياة . اغماضة العين المنتشية لن تحجب

الرؤيا الباهرة لبركة الفيل التي بسطت الواحا هندسية كأنها السحر . سطح الماء الذي يتبارى فوقه الراقصون والبهلوانات والحواة ولاعبو النار والقرداتية واهل الهنك والرنك . المتفرجون من الامراء المصرية وابناء الفلاحين ، سقط بعضهم ـ لفرط التزاحم ـ في مياه البركة . المزيج اللحني الصاخب تصنعه نداءات الباعةواصوات المغنين وصيحات التحدي وصرخات الاشفاق . القناديل التي تعيد الحياة على صفحة المياه متماوجة ، ساطعة ، وهاجة . القصور على الجانبين ـ تحفل بالولائم والغناء والرقص وانهار الخمر ..

يا ابناء بركة الفيل . هذا حي ابائي واجدادي وآباء اجدادي . انتم الغرباء ، ونظراتكم التي تطفح حقدا وشماتة وتآمرا ، اولى بها ان تتسلل الى اعمق الاعماق من نفوسكم . تضع الصورة في اطارها المعقول . دولة الامراء المصرية باقية ما بقى آخر افرادها : محمود جوجو . هذا هو اسمي الذي يقفز بالبسمة الى شفاهكم ، واعتز به . السيادة والفروسية والمبارزات والكاس والطاس والندمان والنكتة البارعة والاغنية الجميلة .. دنيا لا تعرفونها !..

ـ يا ابن الكلب .. الم احذرك من الصخب الذي توقظنا به كل ليلة ؟ .

ـ اعقل يا متولي .. هذه دنياه ..

ـ ملعونة دنياه .. سنوات ولا يكف عن عادته اليومية ..

ـ هل سيؤدبه الضرب ؟

ـ فليرحل عن الحارة .. عن الحي كله !

ـ ولكنه يقيم في ملكه ..

ـ اذن ، اضربه لتهدأ نفسي !. .

يا ايها المسكين . سطور كتاب الامراء المصرية مؤامرات ودسائس ومعارك ودماء . صيحات القتال متصلة . الشر يطل ويتحرك في كل حين . ضرباتك اوسمة يستحقها اخر الامراء في درب عودته الى مجد آبائه . بنى الجد جوجو المساجد والزوايا والاسبلة والسقاياتوالمكاتب والاحواض والقناطر والمربوط للنساء الفقيرات والمنقطعات . البسه الخليفة الخلعة بيده ، وفوض له الامر . جعل عزوة كبيرة منالاتباع واولاد الناس . تحرى العدل ، فالرعية ـ في حكمه ـ سواسية كاسنان المشط . ضيعته الخيانة . احاطت جموع الغادرين بالقصر من كل الجهات . زحفت الى الباب الرئيسي . معهم انخاخ واحطاب . جعلوا فيها لكبريت والزيت . اشعلوها واحرقوا الباب . اقتحموا القاعات والردهات والحجرات ، فلم يتركوا شيئا سليما . تابعت ـ من نافذة باعلى لقصر المقابل ـ موكب جنازته . مشى امامه المشايخ والعلماء والامراء واطفال المكاتب وحاملو مجامر العود والعنبر . بعد ان وسد جثمانه الطاهر التراب ، تواصلت الختمات والقراءات والصدقات اربعين يوما كاملة .

ـ ما تفعله ليس ضربا ، انه قتل !..

ـ فليمت او يذهب في ستين داهية . لم اعد احتمل هذيانه اليومي !..

يا ايها الشاب الطيب . انا السنجق محمود جوجو . اسم يتوه في تلافيف عالمكم الغريب . عاوني على النهوض ، على الفرار من وجه المؤامرة ، على اتصال حلقات السلسلة المضيئة الباهرة . امنحك الف ريال ، والف اردب من القمح والفول والشعير . اضمك الى الاعيان واشراف الفلاحين . اصل اسمك الوضيع بلقب عريق . اجعلككاشفي يوم الانتصار العظيم . تحظى برفقة المجد العائد فوق جواد رائع كانه الاسطورة . الامراء مشاة بين يدي ، والجماهير الحاشدة ـ على الجانبين ـ تهتف وتغني وتلهج بالدعاء . الموكب الفخيم يغادر بركة الفيل ، يعبر ابواب القاهرة ، يشق وسط المدينة بانواع الملاعيب والبهلوانات والمهاترة والمقدمين والقماقم والمباخر . ايدي الكشافين والسناجق تقبض على الاقواس والنشاب ، وتشرع المزاريق . ادخل من باب النصر في موكب عظيم وشنك جليل . انادي بالزينة : تزين مصر وبولاق ومصر العتيقة زينة عظيمة ثلاثة ايام بلياليها . الوقدات واحمال القناديل والشموع بالاسواق وسائر الجهات . الولائم والمغاني وآلات العزف والقهوة والشربات صورة الحياة في كل مكان . بدرات الذهب والفضة تتناثر على الجموع كرذاذ المطر . الخلع والتخاليق الثمينة توهب للعلماء ومشايخ الازهر . الصدقات تجد طريقها الى كل بيت يعاني . الطعام كومات لاهل الخصاصة ، وابناء السبيل ..

.. مجرد ان تضع يدك تحت ساعدي ، تعينني على النهوض، تدلني على ثغرة في الحصار الهائل الذي يحيط بي ..

ـ الن تفيق يوما ؟ ..

ـ ايها الشاب الطيب .. الحمقى يظنونني مخمورا .. الملوك يشرب من الخمر نهرا ، فلا يرتوي ..

ـ الن تفيق ؟ ..

ـ لا تصدق هؤلاء الحمقى .. انت شاب طيب .. السنجق محمود جوجو يهبك ثقته ومحبته ..

ـ ابناء الحارة ضاقوا بك ، ولن استطيع حمايتك من ايذائهم ..

ـ اتركوه في الطين ، فلا فائدة ! ..

ـ وما الجديد حتى يشتد انزعاجكم ؟

ـ هذه صورة الفناها ..

ـ المسكين ! ..

ـ اليس له اهل ؟ ..

ـ اعرف امه .. كانت دلالة في بركة الفيل والاحياء المجاورة ..

ـ لكنه يملك البيت الذي يسكنه ..

ـ ذلك هو الميراث الوحيد الذي خلفه له ابوه ..

ـ يقال ان له بيتا اخر في الصنادقية ..

ـ خرابة في صورة بيت ..

ـ هل هو من المماليك حقيقة ؟ ..

ـ وما المماليك ؟ ..

يا ايها الشاب الطيب . ساعدني في الوصول الى بركة الازبكية. الى قصر ـ ليتني لم اغادره ـ تتراقص اضواؤه فوق مياه البركة ، تحيط به النخيل والاشجار وكرمات العنب ، جواريه شموس ،جليبات من القوقاز الى القصر المنيف ، فلا يقف بهن الياسرجية في سوق الرقيق بباب الفتوح . حراسه من فرق الانكشارية والمتفرقة والعزب. دعوت الشيخ حسن الجبرتي لزيارتي ، فقال وهو يمشط لحيته : انت آخر المماليك .. فمتى تصبح مصر ملكا لابنائها ؟..

يا خليفة المسلمين . مولانا خاقان البحرين وملك البرين . اين جلبانك ؟ ايـن خاصيتك ؟. المؤامرة التي يحيك خيوطها ابناء العرب غايتها التخلص من سيادة السناجق وسيطرة العثمانيين ، فهل تدري؟. يا ايها السلطان . تركنا بيوتنا وحريمنا في عرضك ، ففعل بها اولاد الفلاحين ما فعلوا . حصل منهم الفساد والافساد . هتكوا الاعراض ، وباعوا الاولاد ، واستذلوا السادة والوجهاء ، وقتلوا الامجاد ، وسبوا الاحرار . هدموا الدور ، واحرقوا القصور ، ونهبوا الاموال والبيوت ، وما وجدوه من المتاع والاواني والقصاع والودائع . منعوا خراج السلطان . اكلوا حقوق الفقراء . دشتوا الكتب والمصاحف . بالوا،وتمخطوا ، ومشوا الخيلاء . جاهروا بفاحش القول . اخافوا الناس ..

ـ محمود زفت .. هذا انت ؟. الم يعد في حياتك سوى منقوع البلح ؟ ..

يا ليل المماليك الطويل . اللعنة التي تسقط كل ليلة في افق الغروب ، لتصحو في فجر اليوم الجديد . الامر الذي بدأ محاولة للاقناع ، فرجاء ، فتوسلا عقيما . الصحو في الضحى عادة الاب التي ورثتها . ايراد المزرعة وقصر الجمالية ذي الستين غرفة ضمنا الحياة

الهائلة المستقرة . السيف هو العمل الوحيد الذي يجيده المملوك . تلك كانت حياة الآباء والاجداد ، حياة زاخرة بالفروسية والصراع .. فمتى كان المملوك ينشد بالعمل رزقه ؟..

هدايا الاقاليم ـ رمز وفاء الحاكم ووجهاء السنجقيات والاعيـــان والوجاقلية والمباشرين ـ من الاغنام والبقر والثيران والسمن والعسل، وهدايا التجار من الحرير والحلى والجواهر والوان المسك والعنبــر والكافور والعود ، واواني الزجاج والبلور ، وتلك التي يبعث بهـا تجار الفرنجة من سيوف وخناجر واسلحة بديعة الطراز .. ايام امن زامان . الدنيا عامرة بالخير . الفتن ساكنة والاحوال مطمئنة . المكاسب وفيرة ، والاسعار رخيصة ، والقرى عامرة . يعيش رغدا بها الفقير ، وتتسـع للجليل والحقير ..

بالاختصار ، جرى ما هو مسطر في الكتاب من ذبـــح الامراء ، وتلاشي السلالـة المضيئة الماجدة ، وتمكن الاحلاس من الدولة ، ووصول الصعاليك الى مراتب السلطة ، والذيـن كانوا بالامس اسفل الناس، اصبحوا ملوك الارض يجبى اليهم ثمرات كل شيء ..

ـ هل رأيته ؟ .. لن يكفوا عـن شتمك والسخرية بك .. فلمـاذا لا تعـود الى بيتـك ؟ ..

يا ايها الشاب النبيل . اذا كان المشوار الى بركـة الازبكيـــة بعيدا ، فسر بـي الى المسجد أو ضريح الولـي القيـم . تقـاليـد السناجق تمنع الاجتراء على اقتحام المساجد وضرائح الاولياء مهمـا كانت الاسباب .. فهل تحسب أن ابناء العرب يفعلون ذلك ؟. انحزت الى جانـب سيدي حسين بك الصابونجي . رفعت السـلاح ، فلــم اخفضه حتى قتل من اعوانه من قتل ، ولاذ الاخرون بالفرار . التمع بريق الاعجاب في عينـي سيدي . منحني يده الطاهرة فقبلتها . سمح لـي بارخاء لحيتي ، والتمتع بمنصب خازندار . اصبحـت ـ فيمـا بعد ـ كاشفا . كاشف اليوم هو سنجق الغد . مات سيدي . انـدثر الزمـلاء والاعوان . تلاشى العصر باكمله . لم يبق من سلالة الامراء المصريـــة سواي . السنجق ـ يا أيهـا الشاب الطيب ـ يرث سيده في كـل شيء . حتى في سلطـة الامر والنهي ، في المنصب مهمـا سما . كـان سيدي شيخـا للبلد .. فهل تساعدني ؟

حرصت على اغلاق البـاب جيدا . خلت الساحة الممتدة الا مـن اصراري ونظراته الذئبية . ملت الى الارض ، فطويت طرف السجادة، وقلت ـ دون ان يفقـد رنين الصوت ايقاعه الهادىء : انزل ياباشا !.. تلك هـي الصورة القديمة المتجددة ، التي جـرى عليهـا الاسـلاف الراحلـون . لبى الوالي عثمان باشا راغب امر السنجـق علي بلوط قبان طائعا ، فهل يعصي هذا الصعلوك امري ؟ . لم اهون من شانـه فاكتفي بان ابعث اليه ارباب العكاكيز ، مثلمـا تلقـى الامـر عشرات الباشوات ، فغادروا القلعـة معزولين . نقلوا امتعتهم يوم تلقى الامر نفسه . الوالي ينظر باسى ـ او ينقاد حيلة ـ الى طرف السجـادة المطوى . لا يملك للتقليـد المرعى عصيانا . ينزل مـن القلعـة الـى قصره في المدينة ، ليختار السناجق من يخلفه . ذلك امر قضاه اللـه تعالى ، قد جعل الله لكل شيء بداية ، ولكل بدايـة نهاية ، ولكـل دولـة مدة معلومة ، وقسمة مقسومة .. لكـن الملعون حدق النظــر جيدا ، كانه الصق عينيه بعيني ، ثم تواصلت ضحكاته ألتي لا تليـق بهيبـــة الولاة :

ـ يا مسكين .. لقد جننت .. اتظن انك تحيا في عهد آبائك ؟!.

ـ يا ايها الرجل .. ارادة السناجق حتم .. فلماذا تكابر ؟..

تكاثر الاعوان ، فاحاطوا بـي . وجدت نفسي ـ للمرة الاخيرة ـ خـارج المكـان الذي كنت كرهته ..

يا ابناء الفلاحين . ساعدوني على استعادة مجد آبائي . اناهض السيادة العثمانية . انتزع النير التركي الظالم . لم يعـد الديـــن وشيجة . غيبت خمر الحضارة سلاطين الاتراك . اختلطت انسابهـم ـ في مضاجعات الجواري ـ بالاصول الوضيعة . احلاس الروم حكام القسطنطينية الحقيقيون . التظاهـر بالاسلام وسيلـة الوصـول الى كراسي القيادة . الوالي التركي رمز حياة وضيعة سداها السيطـرة وحصد الشوكـة والاذلال . جسد الخلافـة يعاني من الامراض والوهن والشيخوخة . الخزانة مفلسة ، والجيش اسطورة ، والاعداء يتربصون، والفتنة تتمطى في قلب الولايات ، والاطراف تتمرد وتثور ، وتعلـــن الاستقلال . حتى الدعاء على المنابر لم يعـد الخليفة النعيم يستحقه. الخليفـة اسير اغواته ورجال قصره . نفـوذ الاجانب يقهر كل محاولات المصلحين من ساسة الاتراك . حتى السناجق الذين يدينـون بالولاء للخليفـة العثماني ، ناصبهم العداء . اخوض المعركة الى نهايتها . اقطع الآذان المتصنتة ، الالسن التي تردد الشائعات . افقأ الاعيـــن التي تمد البصر الى مـا وراء الحدود . اطيح بالاعناق التـي تدعـي التفوق والامتياز .. فالامراء المصرية ـ نحـن ـ وابناء الفلاحين ـ انتم ـ نسيج واحد ، متماسك ، لعن الله من يمزقه . هذا عهدي الـذي اقسم بسيفي اني ـ لو ساعدتموني ـ احققه . لقد طالما شايع علماء الازهر والتجار والوجهاء والاعيان سناجق العهد المجيد . شايعوهـم علانية وسرا . فعموا الذهب والريالات والغلال والسلاح . جعلـوا التخلص من ظلم الاتراك هدفا غاليا . مرت الاعوام ، فاذا الحاميات التركية تمصرت . مات من مات، وانقطعت صلة الباقين بالوطن الاصلي، وتغلب العنصر الوطني الشجاع ، فتمصرت الحاميات .. فهل تعيد ايام المجد دورتها ؟!..

يا اهل مصر . الامان الامان الامان . انتم رعيتنا . لم آت لاثـارة الفتنة ، واغراء ناس على ناس . اتيت لاعطي كل ذي حق حقه . لارفع الظلم والجور ، واقيم الشرع ، وابطل الحوادث والمكوسات المبتدعـة والنكرات والخمامير ومواقف الخوطى والبوظ من كل احياء القاهرة . اقضي حوائج العائلين والقاصرين بشهامة معروفة . اخلع الخلـع علـى الامراء والاعيان والمشايخ . آمر باقامة شعائر المساجد ، واجراء خيرات الاوقاف ، واعطاء العوائد ، آمر بوضع الشموع والقناديل على قبـور الاولياء ، وتقبيل اعتابهم ، والايمان بان بعض الاولياء اطلع على اللوح المحفوظ . انادي على طائفة النساء الا يجلسن على الدكاكين ولا فـي الاسواق الا بقدر الحاجة . اسعى في الحصول على اقوات الرعية ..

ـ واضح ان الخمر ضيعتك تماما .. الاولاد بداوا في التجمع .. ولن تفلت ـ كالعادة ـ من ايديهم ..

يا شيخ العرب همام . اطلب معونتك . ساعدني فـي ارتقـــاء المشيخة ، امكنك من الحصول على الفرمان الذي تهاوت يداك ـ موتا ـ قبل ان تصلا اليه . لك كل البلاد المرهونة في برديس وفرشوط ، لرعاياك من عرب الهوارة الميامين ـ انت حاكمهم الاوحد ـ كل الغلال والسكر والمحاصيل . حق الحياة فوق الشرائـع والقوانين . لـــم يستولوا على ما لا يملكونه . اقطعهم الظاهر برقوق ارضا بناحية جرجا، صحراء خرابا . بالهمة والاصرار عمروها . شيدت المباني ، واخضرت الارض ، واوقدت النيران ، وسرت الحياة في الموات . وصل المتآمر محمد ابو الذهب الى فرشوط ، فلم يجد مانعا . ملك ـ واتباعه ـ ونهب . اخذ جميع ما كان بدوائر العظيم همام واقاربه وانصاره مـن ذخائر واموال وغلال . قتل ودمر وسبى النساء ويتم الاطفال . زالت دولة شيخ العرب من بلاد الصعيد كانها ـ يا للماساة ـ لم تكن . بالغدر زالت . تأكد النصر لعلي بلوط قبان . اصبح سيد الوجهين ، وصاحب النفوذ المطلق في كل انحاء مصر . اتجه الى تصفية منافسيه من الماجدين ، الرؤساء والاقران وباقي الاعيان . فرق جمعهم في القرى والعساكر والنجوع . تتبعهم خنقا وقتلا . ابادهم فرعـا واصلا . استاصل كبار خشداشينه وقبيلته . فرض القوانين الجسيمة والعوائد المرتبة ، وحارب كبار العربان : لماذا اذل الملعون ابو الذهب عـرب الهوارة ، وادخلهم في طاعة علي بلوط قبان ، ومت انت ايها العزيز كمدا . دولة الهوارة بالخديعة زالت ، وبالحق تعود . نقيم ثارنا في

ثأركم . دمنا في دمكم ، وعفا الله عما سلف . كل الهوارة الذين شردوا وسلبت نعمتهم ، انعم عليهم ، اكرمهم ، القاهم بالبشاشة والود والمحبة . لم يستفد من ضراعاتنا السابقة ، يظهر البهجة والانبساط ، يأمل في المزيد من دماء الاتراك والشراكسة وعرب الهوارة ، الا ابناء الفلاحين .. هؤلاء الاجلاف الذين يطمحون لان يتحقق حكم مصر لهم يوما . الرمال تمتص الدماء الزكية . اعين الفلاحين ـ وحدها ـ تتلهى برؤية الرؤوس العظيمة فوق الصواني ، ومشاعر الفرحة واضحة لا تنكر !..

يا ايها الصغار : ماذا تفيدون من اذية الخلق ؟. ورود الغد انتم ، فلا تجعلوا الحاضر البشع يئد المستقبل . الخليفة يمتص ضرع مصر الحلوب . اجلاف الفلاحين ناموا في الجهالة . عرب الهوارة عاثوا في الارض فسادا . المستقبل حياتكم ، فانتزعوه من ايديهم ..

ـ حرام يا اولاد .. لا تقذفوه بالطوب ..

ـ ساعدوه على الخروج من الحفرة ..

هل هي النهاية ؟. اغوص في البئر الذي اجاد المتآمرين اخفاءه . منذ ادنى الرجل لهيبه المتراقص ، وبان الشر في عينيه . بدت النهاية قريبة كأنها الحتم . ليكن طي الصفحة الاخيرة في المجلد العظيم بمثل ما نبضت به كل الصفحات من آيات المجد والعظمة والفروسية . مثل الايام الحاسمة في تاريخ البشرية تجيء ، مثل الطوفان والبراكين والزلازل والاعاصير . مثل الاسطورة التي يعجز عن تصورها الخيال . ظهري الى جدار النبالة . سيفي مشرع لا ينخفض . الحرب دابنا والجهاد صنعتنا . بالسيف فرضنا السيادة والهيبة ، بالسيف نعود .

نحن من الشجرة الطيبة التي اصلها ثابت وفرعها في السماء . اجدادنا امير بن امير الى سيدنا نوح عليه السلام . نحن فرسان المنايا والموت الاحمر . المجد ممتد ، ومتواصل ، وباق . كل من يعاند او يخالف ليس له جواب الا السيف . من تقرب الينا شبرا ، تقربنا اليه ذراعا ، ومن تقرب الينا ذراعا تقربنا اليه باعا . الويل كل الويل لمن يعادي ، والخير كل الخير لمن يوالي . لا يحصل منا اذية لاحد من الفلاحين ولا من العرب . الايذاء لنا اشواك الطريق الى البطولة . الشجاعة صبر ساعة . من اراد ان ينصر الحق ، فليقم معي ..

ـ صيب الرجل في رأسه ..

ـ ربما قتل المسكين ..

يا رب !.. يا ايها العزيز ، القادر ، القوي ، القاهر ، المدبر للكائنات ، المحيط علمه بالارضين والسموات . يا ايها القديم الاول ، الذي لا يزول ملكه ولا يتحول ، خالق الخلائق ، مفني الامم ، محيي الرمم ، معيد النعم ، مبيد النقم ، كاشف الغمم . صاحب الجود والكرم . اغثني يا غياث المستغيثين . احكم بعدلك يا احكم الحاكمين . انصرني وانتصر لي . اني عبدك الضعيف المظلوم يا ارحم الراحمين . لا اريد الا المعيشة وراحة السر . بسم الله الرحمن الرحيم . قل اعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ، ومن شر غاسق اذا وقب .. قل اعوذ برب الناس ، اله الناس .. قل هو الله احد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد .. الشهد .. اشهد ان لا اله الا الله .. الا الله .. ولم يكن .. لم يكن .. له كفوا احد ..

القاهرة